



القلزم للدراسات التاريخية والحضارية

مجلة علمية محكمة

تصدر عن مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر-السودان
بالشراكة مع الإتحاد الدولي للمؤرخين-الدنمارك



ISSN:1858-9952

مجلة القلزم العلمية للدراسات التاريخية والحضارية علمية دولية ربع سنوية محكمة- العدد الثاني والعشرون (رمضان الأولي 1444هـ - مارس 2023م)

في هذا العدد :

- ثورة 21 أكتوبر 1964م السودانية المد الثوري وإعادة الحرية
د نجاة أبو القاسم محمد أبو القاسم
- دور العمل المعنوي والمعنويات في انتصار الثورة المهدية (يونيو/1881 - يونيو/1885م)
د. محمد المصطفى أبو القاسم
- علماء وداي ومقاومة الإحتلال الفرنسي (دراسة تاريخية تحليلية)
أ.عبد الواحد محمد داود
- علاقة كوش المبكرة والقديمة بمصر (3500 - 2050 ق م)
د. أحمد الياس حسين
- قراءة جديدة لقصيدة فزي وَزِي (Fuzzy - Wuzzy) للشاعر البريطاني رُودْيَارْد كِبْلِينْغ
د. أوشيك آدم علي موسى
- موقف دول الوفاق (الحلفاء) من مصطفى كمال (أتاتورك) مؤسس الجمهورية التركية (1919 - 1924م).
د . حسن عوض الكريم علي أحمد



العدد الثاني والعشرون- رمضان 1444هـ - مارس 2023م

ردمك ISSN: 1858 - 9952



دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution

فهرسة المكتبة الوطنية السودانية-السودان
مجلة القلزم: Alqulzum Journal for:
Historical and cultural Studies

الخرطوم : مركز دول حوض البحر الأحمر 2023
تصدر عن دار آريثيريا للنشر والتوزيع -السوق العربي
السودان - الخرطوم
ردمك: 1858-9952

مجلة القلزم للدراسات التاريخية و الحضارية

الهيئة العلمية و الإستشارية

- أ.د. حسن أحمد إبراهيم-السودان
أ.د. سارة بنت عبد الله العتيبي- المملكة العربية السعودية
أ.د. أسامة عبد الرحمن الأمين- السودان
أ.د. أبو هريرة عبد الله محمود يعقوب- السودان
أ.د. أشرف محمد عبد الرحمن مؤنس - جمهورية مصر العربية
أ.د. السماوي النصري محمد أحمد - السودان
د. أحمد الياس الحسين - السودان
د. داود ساغه محمد عبد الله- السودان
د. سلطان أحمد الغامدي- المملكة العربية السعودية
د. سامي صالح عبد المالك البياضي- مصر
د. محمد أحمد زروق- المغرب
د. سعاد عبد العزيز أحمد السودان
د. أحمد محمد مركز- السودان
د. باب ولد أحمد ولد الشيخ سيديا- موريتانيا
د. عزة محمد موسى - السودان
د. حنان عبد الرحمن عبد الله التجاني- السودان
د. ربيعة أحمد عمران المداح- ليبيا

هيئة التحرير

المشرف العام

أ.د.إبراهيم البيضاني

رئيس هيئة التحرير

أ.د.حاتم الصديق محمد احمد

رئيس التحرير

د. عوض أحمد حسني شبا

سكرتير التحرير

د.سلوى التجاني فضل جبر الله

التدقيق اللغوي

أ.الفتاح يحيى محمد عبد القادر

الإشراف الإلكتروني

د. محمد المأمون

التصميم الداخلي

أ. عادل محمد عبد القادر

تصميم الغلاف

ايلين عبد الرحيم ابنعوف

الآراء والأفكار التي تنشر في المجلة

تحمل وجهة نظر كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن آراء المركز

موجهات النشر

تعريف المجلة:

مجلة (الْقُلُوم) للدراسات التاريخية و الحضارية مجلة علمية محكمة تصدر عن مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر - السودان . بالشراكة مع الاتحاد الدولي للمؤرخين - الدنمارك تهتم المجلة بالبحوث والدراسات التاريخية والحضارية والمواضيع ذات الصلة لدول حوض البحر الأحمر من الناحية التاريخية والحضارية.

موجهات المجلة:

1. يجب أن يتسم البحث بالجودة والأصالة وألا يكون قد سبق نشره قبل ذلك.
 2. على الباحث أن يقدم بحثه من نسختين. وأن يكون بخط (Traditional Arabic) بحجم 14 على أن تكون الجداول مرقمة وفي نهاية البحث وقبل المراجع على أن يشارك إلى رقم الجدول بين قوسين دائريين ().
 3. يجب ترقيم جميع الصفحات تسلسلياً وبالأرقام العربية بما في ذلك الجداول والأشكال التي تلحق بالبحث.
 4. المصادر والمراجع الحديثة يستخدم أسم المؤلف، اسم الكتاب، رقم الطبعة، مكان الطبع، تاريخ الطبع، رقم الصفحة.
 5. المصادر الأجنبية يستخدم اسم العائلة (R, Hill).
 6. يجب ألا يزيد البحث عن 30 صفحة وبالإمكان كتابته باللغة العربية أو الإنجليزية.
 7. يجب أن يكون هناك مستخلص لكل بحث باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد على 200 كلمة بالنسبة للغة الإنجليزية. أما بالنسبة للغة العربية فيجب أن يكون المستخلص وافياً للبحث بما في ذلك طريقة البحث والنتائج والاستنتاجات مما يساعد القارئ العربي على استيعاب موضوع البحث وبما لا يزيد عن 300 كلمة.
 8. لا تلزم هيئة تحرير المجلة بإعادة الأوراق التي لم يتم قبولها للنشر.
 9. على الباحث إرفاق عنوانه كاملاً مع الورقة المقدمة (الاسم رباعي، مكان العمل، الهاتف البريد الإلكتروني).
- نأمل قراءة شروط النشر قبل الشروع في إعداد الورقة العلمية.

المحتويات

ثورة 21 أكتوبر 1964م السودانية المد الثوري وإعادة الحرية.....(7-22)

د نجاه أبو القاسم محمد أبو القاسم

دور العمل المعنوي والمعنويات في انتصار الثورة المهدية (يونيو/1881 - يونيو/1885م).....(23-50)

د. محمد المصطفى أبو القاسم

علماء وداي ومقاومة الإحتلال الفرنسي (دراسة تاريخية تحليلية).....(51-68)

أ.عبد الواحد محمد داود

علاقة كوش المبكرة والقديمة بمصر (3500 - 2050 ق م).....(69-76)

د. أحمد الياس حسين

قراءة جديدة لقصيدة فَرِي وَزِي (Fuzzy - Wuzzy) للشاعر البريطاني رُوذِيَارْد كِبْلِينْغ.....(77-90)

د. أوشيك آدم علي موسى

موقف دول الوفاق (الحلفاء) من مصطفى كمال (أتاتورك) مؤسس الجمهورية التركية (1919-1924م)..(91-104)

د . حسن عوض الكريم علي أحمد

كلمة التحرير



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين.

القارئ الكريم:

بعد السلام وكامل التقدير والاحترام يسعدنا أن نضع بين يديك هذا العدد من مجلة القلزم للدراسات التاريخية والحضارية الذي يأتي في إطار الشراكة العلمية المثمرة والجادة مع الاتحاد الدولي للمؤرخين (الدنمارك).

القارئ الكريم:

هذا هو العدد الثاني والعشرون من المجلة بفضل الله وتوفيقه بعد أن نجحت المجلة بواسطة هيئتها العلمية والاستشارية وهيئة تحريرها في إصدار عشرون عدداً من المجلة، الأمر الذي يضع الجميع أمام تحدٍ كبير يتمثل في بذل المزيد من الجهد بغرض التطوير والتحديث والمواكبة لتصبح هذه المجلة في مصاف المجلات العالمية الرائدة بإذن الله تعالى.

القارئ الكريم:

نأمل أن يكون هذا العدد أكثر شمولاً وتنوعاً من حيث المواضيع وطريقة طرحها وتحليلها ومعالجتها. ونسأل الله تعالى أن يجد المهتمين والمختصين والباحثين في هذا العدد ما يفيدهم ويضيف للبحث العلمي. وأخيراً نجدد شكرنا وامتناننا لكل الذين أسهموا في إنجاح هذا العدد من باحثين، ومحكمين ونجدد دعوتنا للجميع بأن أبواب النشر مشرعة في جميع مجالات القلزم العلمية المتخصصة.

أسرة التحرير

ثورة 21 أكتوبر 1964م السودانية المد الثوري وإعادة الحرية

مركز بحوث ودراسات حوض البحر الأحمر - السودان

د نجاة أبوالقاسم محمد أبوالقاسم

المستخلص :

شهد السودان ثورات شعبية ضد الطغيان والديكتاتوريات في أكتوبر 1964م وفي أبريل 1985م وفي ديسمبر 2019م تشابهت فيها الأسباب والعوامل إلا أن الاختلاف بينها ارتبط بمحركاتها. جاءت هذه الدراسة بعنوان ثورة 21 أكتوبر 1964م السودانية المد الثوري وإعادة الحرية. استهدفت تسليط الضوء على مشاركة كافة قطاعات الشعب من اتحادات ونقابات وأحزاب وطلاب وعمال وتجار والمعلمين والأطباء والبسطاء من الناس في الثورة. وتجنأ أهميتها في كونها من أولى الثورات الشعبية المناهضة للحكم العسكرية في افريقيا والوطن العربي، انتهجت الدراسة منهج البحث التاريخي الوصفي التحليلي. ومن النتائج التي توصلت لها الدراسة إعادة الحكم المدني و دور الطلاب المحوري في الثورة ووقوف الجيش مع مطالب الشعب ومناصرته له.

كلمات مفتاحية : 21 أكتوبر ، ثورة ، السودانية ، جبهة ، وطنية، حرية

The Sudanese Revolution of 21st October 1964 A.D

The Revolutionary Uprising and Restoration of the Freedom

Nagat Abuelgasim Mohamed Abuelgasim

Abstract:

Sudan witnessed public revolution against oppression and dictatorship in October 1964, April 1985 and December 2019, the reasons and factors are alike but the difference between them linked to its motives. The study comes under the title of “Sudanese 21st October 1964 revolution- the revolutionary uprising and restoration of the freedom. It aims to shed the light on all people’s sectors unions; syndicates, parties, students, labors, traders, teachers, doctors and others in the revolution. Its significance is that it is the first popular revolution against the military regime in African and Arabian countries. The study followed the analytical descriptive historical research method. The results of the study: Restoration of the civilian regime. The important role of the students in the revolution. The military supporting the people’s demands and encouraging them. The study recommends: Sudanese universities must work on establishing to resist the dictatorship regime. Establishing the civil organizations culture.

Key Words: 21st October, revolution, Sudanese, front, nationalism, freedom.

المقدمة :

رغم التأييد والشعبية التي وجدها نظام 17 نوفمبر بقيادة الفريق ابراهيم عبود إلا أنه واجه المعارضة والتظاهر في وادي حلفا ضد مرسوم النظام بإعادة توطين النوبيين في خشم القربة في 1960م نتيجة للإصلاح الاقتصادي الذي كان ضعيفاً بسبب المصاعب المتزايدة في ميزانية النظام العسكري .

تدهورت الأحوال في الجنوب بصورة مريعة في أغسطس 1964م وشعرت الحكومة بالعزلة التامة عن الشعب وهي تعالج مشكلة الجنوب بالعنف والضرب والقصف
هرب وليم دينك أحد مفتشي مراكز المناطق الجنوبية وانضم الى المتمردين وسافر الى الفاتيكان وبريطانيا واسبانيا ونيويورك مقر الأمم المتحدة وبدأ يخاطب الرأي العام العالمي من خلال المنظمات المسيحية وغيرها من معركة الاضطهاد الديني الذي يعاني منه المسيحيون في جنوب السودان وعن معركة الإبادة التي يشنها الشمال العربي على الجنوب المسيحي فضلاً عن الصور الفوتوغرافية التي تصور تخلف الجنوب والدمار التام الذيواجهه ولذا تدفقت عليهم المساعدات أرادت الحكومة أن تمتص الغضب الشعبي بإشعار المواطنين بالخطر الذي يهدد وحدة السودان و اقناع الجماهير بتأييدها لذلك سارعت بتكوين لجنة اسمتها اللجنة القومية لشؤون الجنوب برئاسة السيد أحمد محمد يس ذهبت الحكومة الى أكثر من ذلك وسمحت بإقامة الندوات والمحاضرات العلمية لمناقشة مشكلة الجنوب ولكنها فشلت في تحشيد الرأي والتأييد لها بل تبلور مفهوم جعل هذه الندوات منابر للتبصير بمشكلة الجنوب فتكون الرأي بأن حل مشكلة الجنوب يبدأ أولاً بإزالة النظام العسكريالذي توفرت أسباب ازاحته واجتمعت له الأطراف السياسية والنقابات والاتحادات حتى اقتلعتة.

تكوين الجبهة الوطنية ونمو التنظيمات :

تنامى المد المعارض لحكومة الفريق عبود الذي قفز على السلطة في نوفمبر 1958موتجلى ذلك في دور اتحاد طلاب جامعة الخرطوم في الجمع بين زعمي حزب الأمة والوطني الاتحادي ونتج عنه تكوين الجبهة الوطنية المتحدة برئاسة السيد الصديق المهدي وأنضم اليها الحزب الشيوعي والأخوان المسلمين وشهدت الفترة أيضا فعالية ونمو التنظيمات النقابية والاتحادات الطلابية التي أصرت على مقاومة الحكم العسكري الذي فشل في معالجة قضية جنوب السودان مما اضطر النظام الى تكوين لجنة قومية لبحث أسباب المشكلة وتبع ذلك السماح بمناقشة المشكلة عبر ندوات مفتوحة للاستشارة بأراء المهتمين والمختصين وأهل الرأي⁽¹⁾

الندوات المعارضة للحكم العسكري:**الندوة الأولى الخميس 10 سبتمبر 1964م:**

دعت لإقامتها جمعية الدراسات الاجتماعية بجامعة الخرطوم مساء الخميس 10/9/1964م تحدث فيها الدكتور حسن الترابي والأستاذ أحمد عبد الحليم وعثمان خالد مضوي المحامي ومبروز ريني المحامي وخوجلي عبدالحليم كان المتحدثون يمثلون الاتجاهات الرئيسية في الجامعة ومثل

أحمد عبد الحليم اليسار وخوجلي عبد الحليم يميل الى اتجاهات الوسط الذي يمثله في الجامعة المؤتمر الديمقراطي الاشتراكي ويمثل أمبروز ريني كتلة الجنوبيين ويمثل الاخوان المسلمين الأستاذ عثمان خالد المحامي وشارك حسن الترابي بصفته خبيراً في القوانين الدستورية⁽²⁾ حضر الندوة السيد مأمون بحيري وزير المالية واللواء المقبول الأمين الحاج وزير الداخلية واللواء محمد نصر عثمان وزير العمل والاستعلامات⁽³⁾ وجريفيثياك والسيد أحمد محمد يس رئيس اللجنة القومية للجنوب والطلبة وأساتذة الجامعة وامتلات القاعة الخاصة بالامتحانات بعدد ضخم من الحاضرين وأحدثت هذه الندوة صدى واسع⁽⁴⁾ أكد الدكتور حسن عبدالله الترابي أن قضية الجنوب قضية دستورية في المقام الأول وأن هناك اعتداء على حرية الآخرين في الشمال والجنوب على السواء وأن ظروف معينة تصاعدت بالأمر في الجنوب الى تمرد عسكري و أن حل قضية الجنوب والشمال حل واحد يبدأ بإزالة الحكم العسكري⁽⁵⁾

الندوة الثانية الأربعاء 23 سبتمبر 1964م:

شجع القبول الكبير الذي وجدته ندوة جامعة الخرطوم لقيام ندوة أخرى في جامعة القاهرة فرع الخرطوم حضرها عدد ضخم من المواطنين وطلاب الجامعة ومن الحضور أيضاً مساعدا سكرتير لجنة الجنوب السيد الطيب عبد الله والنذير حمد تحدث فيها الأساتذة محمد صالح عمر الأستاذ بكلية الحقوق جامعة الخرطوم والسماي عبد الله يعقوب المحاضر بجامعة الخرطوم وعلي عبدالله يعقوب والرشيدي نايل المحامي وبابكر الحاج الطالب بجامعة الخرطوم ومحمد خليفة الطالب بجامعة القاهرة الفرع وشارك الحضور بالمداخلات واثراء النقاش⁽⁶⁾

الندوة الثالثة 10 أكتوبر 1964م :

تحدثت الندوات السابقة عن كل السلبيات وحددوا يوماً لمناقشة مشكلة الجنوب والقمع الذي اتبعته الحكومة في حل المشكلة دون أن تدرس أصل المشكلة التي رأى الطلاب بأن حلها يكمن في الحوار وليس البطش دعت جمعية الفلسفة بجامعة الخرطوم علي بقادي للحديث عن تقييم مشكلة الجنوب ولما لم تتحمل الحكومة النقد أصدرت قراراً بمنع تلك الندوات واتصلت وزارة الداخلية بمدير جامعة الخرطوم تبلغه قرارها بمنع الحديث عن مشكلة الجنوب فنقل مدير الجامعة القرار لاتحاد الطلاب الذي كان على رئاسته حافظ الزاكي ورفض الاتحاد القرار وأعتبر تنفيذه سيكون بداية لأوامر أخرى وأنه تدخل صريح في استقلال الجامعة ولذلك أرسلت وزارة الداخلية أمرها لرئيس الاتحاد يلزمه بالتوقيع على أمر الغاء الندوة ورفض رئيس الاتحاد التوقيع على أوامر الحكومة لأنه لا يعترف بها ودعا الطلاب لاجتماع ذكر فيه أن استقلال الجامعة يجب أن لا يفهم في حدود قوانين الدولة فكان رأي اللجنة التنفيذية أنها لا تعترف بالسلطة التنفيذية⁽⁷⁾ وأخذ الطلاب يرددون أناشيد الثورة

من غيرنا يعطي لهذا الشعب معنى أن يعيش وينتصر

من غيرنا ليقرر التاريخ والقيم الجديدة والسير

من غيرنا لصياغة الدنيا وتركيب الحياة القادمة

جيل العطاء المستجيش ضراوة ومصدامة
المستमित على المبادئ مؤمنا
المشرتب الى النجوم لينتقي صدر السماء لشعبنا
جيلي أنا
وهدم المحاولات العيقة وانتقى سيف الوثوق مطاعنا
ومشى لباحات الخلود عيونه مفتوحة
وصدوره مكشوفة بجراحها متزينة
متخيراً وعر الدروب وسائراً فوق الرصاص منافحاً⁽⁸⁾

أصر الاتحاد على اقامة الندوة وأبلغت سلطات الشرطة المتحدثين بأن الندوة غير مشروعة ودعتهم الى عدم الاشتراك فيها لكن الندوة أقيمت بميدان النجيلة بين داخلتي كسلا والقاش في مساء يوم 10 أكتوبر فتدخلت الشرطة ووجه الضباط أمراً بفض الندوة وتفريق الطلاب الذين احتجوا على دخول الشرطة الى حرم الجامعة ولكن اللجنة التنفيذية للاتحاد عند نقاشها للأمر وافقت على فض الندوة لعدم استعداد الطلاب للمواجهة ضد الشرطة ثم تقدم بعد ذلك الاتحاد بمذكرة شديدة الهمجة للحكومة اعتقلت على إثرها اللجنة التنفيذية وكانت تلك الدورة للاتحاد تتكون من أربعة مقاعد للأخوان المسلمين وثلاثة للشيوعيين ومقعدين للمؤتمر الديمقراطي الاشتراكي ومقعد للجهة الوطنية الاشتراكية والجهة المتحدة معاً وإزاء اعتقال اللجنة التنفيذية في سجن كوبر تكونت لجنة تنفيذية جديدة على نفس التشكيل السابق يتزأسها ربيع حسن أحمد من الاتجاه الاسلامي⁽⁹⁾

الندوة الرابعة 21 أكتوبر 1964م:

دعا اتحاد طلاب جامعة الخرطوم لهذه الندوة وطلب من كل اتجاه أن يعين واحداً من عضويته ليتحدث باسمهم واعتذر حسن عابدين عن التحدث لعدم استعداده ولكنه أفيد بأن الندوة ليست لتبادل الآراء عن الجنوب بقدر ماهي لتحدي الشرطة لتدخلها في الندوة السابقة فتجمع الطلاب في المساء في داخلية البركس وجمعوا الطوب والحجارة والعصي والسيخ في ميدان الندوة شمال داخلية عطبرة وكانوا عازمين ومتفقين على الاصطدام بالشرطة الصمود حتى النهاية وعند الساعة الثامنة والنصف مساءً بدأت الندوة أدارها أنور الهادي قائلاً: إنهم يقيمون هذه الندوة لأنهم يعتبرون أن مشكلة الجنوب مشكلة قومية لابد أن يشترك الجميع في حلها حلاً سلمياً وتحدث عن عناد الحكومة ووجه لها السباب⁽¹⁰⁾

بهذا المشهد البطولي للطلاب تصاعدت المعارضة السياسية لنظام الفريق عبود وأطلقت الشرطة الرصاص في مساء هذا اليوم 21 أكتوبر 1964م وتعرض الطلاب للضرب والتنكيل والملاحقة حتى استشهد الطالب أحمد القرشي⁽¹¹⁾ وتبعه عبدالحفيظ⁽¹²⁾ وتجمع الأساتذة والطلبة في يوم الخميس 1964/10/22م يحملوا جثمان شهيد الطلبة القرشي ليصلوا عليه في ميدان عبدالمنعم قبل نقله الى مشواه الأخير في قريته القراصة وشاركت أعداد غفيرة من المواطنين في تشييع الشهيد وتملك

الجماهير غضب جامح حينما شاهد عربات الجيش الحاملة للجنود تسد الطرقات فانقضوا عليها يرمونها بالحجارة ويشعلون فيها النيران وعم العنف العاصمة وفي يوم الجمعة 1964/10/23م تحولت حشود المواطنين عقب صلاة الجمعة الى تظاهرات جماهيرية فرقها قوات الأمن بالهراوات والقنابل المسيلة للدروع⁽¹³⁾ إلا أن الحكومة لم تمارس على الشارع ما من شأنه الحفاظ على الانضباط الذي يبيحه القانون⁽¹⁴⁾

لقد مثل الطلاب رأس الرمح في إزكاء روح الثورة بحماسهم وشبابهم وبسالتهم التي تجلت فيها الوطنية الخالصة وحبهم لهذا الوطن الذي بذلوا من أجله المهج والأرواح .

موكب القضاة والمحامون السبت 1964/10/24 م :

تصاعدت قوى الثورة ففي صباح السبت 24 أكتوبر خرج القضاة والمحامون⁽¹⁵⁾ فيموكب الى القصر محتجين على ما يجري في الساحة السياسية من عنف وتفتيل⁽¹⁶⁾ ورفعوا مذكرة باسمهم جميعاً الى الرئيس عبود قالوا: فيها بما أننا نحن رجال القضاء والمحامين نشعر أن مسؤوليتنا نحو العدالة وسيادة القانون في هذا البلد تفرض علينا أن نقرر أن الاعتداء الذي وقع على طلبة جامعة الخرطوم في حرم الجامعة يتنافى والقواعد القانونية الواجب احترامها من قبل الحكومة وأن تصرف البوليس لم يصدر بناءً على أمر من قاضي كما يقضي بذلك القانون وعليه فإننا نطالب بإجراء تحقيق فوري بواسطة قاضي في الحوادث المؤسفة التي راح ضحيتها طالب برئ وأصيب فيها آخرون بجراح خطيرة تصل الى جريمة القتل العمد كما نطالب بتقديم من تثبت عليه المسؤولية الى المحكمة الجنائية سواء كان عضواً في المجلس الأعلى أو وزيراً كبيراً أو صغيراً سواء كانت المسؤولية نتيجة عمل ايجابي أو سلبي وبغير ذلك لن يهدأ لنا بال ولن نستطيع أن نسكت على هذا الأمر ومنعت السلطات خروج موكب القضاة والمحامين من دار القضاء وأحاطت المبنى بقواتها فتداول القضاة والمحامون الأمر وفي الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر أعلنوا للشعب السوداني العصيان المدني والاضراب السياسي⁽¹⁷⁾ بلسان عابدين اسماعيل النقيب الأسبق للمحامين وخرجت على إثره مظاهرات جابت شوارع العاصمة المثلثة واجتمع ممثلو بعض الهيئات المهنية لوضع خطة لتعميم وانجاح الإضراب السياسي في جميع مرافق الدولة وفي كل المدن والقرى⁽¹⁸⁾

لقد خلق نظام الفريق عبود الذي عرف بأنه كان رجعيًا وعميلًا للاستعمار ثورة شاركت فيها كل الطبقات الاجتماعية في النضال ضده كما فجرت ديكتاتوريته قوى وطنية لمناهضة التسلط في الجيش السوداني

العصيان المدني والاضراب السياسي :

في فجر الأحد 1964/10/25م أبلغ المواطنين والعمال بدعوة الاضراب السياسي العام فتركوا المكاتب والمراكز بشكل جماعي⁽¹⁹⁾ وتوقفت حركة النقل بالسكة حديد وحركة النقل العام وأغلقت المتاجر رغم اعلان تشكيل المحاكم العسكرية وصدور القرار بتطبيق المادة الرابعة من قانون الأمن العام التي تنص على توقيع عقوبة الاعدام على المخالفين⁽²⁰⁾ وتحولوا الى الشارع حيث وجدوا في مواجهتهم دبابات الجيش وفرق المظليين⁽²¹⁾ وشارك في الاضراب أيضاً المدرسون

والأطباء⁽²²⁾ والنساء يهتفن بالشعارات المناهضة للعسكر وعجزت الشرطة في يوم 26 أكتوبر عن وقف مسيرات المتظاهرين الضخمة التي جاءت من كل صوب واختفى أفراد هذه القوات بمجرد وقوع اشتباكات وصلت الأبناء بعد ظهر ذلك اليوم بأن مزارعي الجزيرة انضموا الى حركة الاضراب وهم في طريقهم للعاصمة وكان العصيان منظماً بطريقة جيدة مما حرر المعتقلين السياسيين وجاءت جماهير الأقاليم للاشتراك في الحركة وسلم الحاكم العسكري في واد مدني سلطته للجهات القضائية وفي عطبرة انسحبت القوات المسلحة الى الثكنات وقررت جماهير كسلا ارسال قطار يحمل مواطنين من أجل مساعدة العاصمة⁽²³⁾ وفي مدينة الدويم أطلقت الجماهير سراح المسجونين وكان في السجن الأمير آلي عبدالرحيم شنان قائد انقلاب مارس 1959م وفي مدينة بورتسودان قضت الجماهير ليلها في الشارع وتحول السودان كله الى ساحة ثورية وفي غمرة هذه الأحداث تحولت قوة من الأخوان المسلمين وتسربت الى السفارة المصرية حيث حاولت حرقها بدعوى الاحتجاج على مقالات ظهرت في بعض الصحف المصرية ولكن الرئيس المصري جمال عبدالناصر فوت هذه المؤامرة الاستعمارية قائلاً: أن ذلك الأمر لن يؤثر على تأييد ثورة مصر لثورة السودان⁽²⁴⁾

اجتمع معظم ضباط القيادات العسكرية⁽²⁵⁾ واندفع الشعب وأحاط بالجيش غير مبال بمدافعه ودباباته بعد أن جرت محاولات تغري الجيش بحصد الجموع المتدفقة الا أن عدد من الضباط الأحرار حالوا دون تنفيذ الخطة⁽²⁶⁾ وأملوا شروطهم على عبود بحل مؤسسات الحكم الرئاسية التنفيذية والتشريعية⁽²⁷⁾ فأعلن عبود في مساء اليوم ذاته حل المجلس الأعلى ومجلس الوزراء والمجلس المركزي عندها نزل الشعب الى الشارع وتيقن أنه قد حقق النصر دون أن تتقدمه الزعامات السياسية التقليدية وبدأت الهتافات التي تعكس ذلك الاحساس (الشعب الشعب عاش الشعب) (نحن الشعب نحن القوة) في 27/10/1964م بدأت قيادات الأحزاب تتجمع في قصر دار القبة بأمدردمان لمفاوضة عبود واستلام السلطة وفي مقابلها تجمعت قوى الطلاب والقوى النقابية والمهنية المختلفة في مقر دار أساتذة جامعة الخرطوم تحت اسم الجبهة الوطنية للهيئات⁽²⁸⁾ خرجت فصائل القوى الوطنية الديمقراطية في كل المدن والأرياف تعلن الاضراب السياسي وتهتف الشعب الشعب، نحن الشعب، عاش الشعب، تشابكت الأيدي وتلاصقت الأبدان وتراصت جموعها كالبنيان المرصوص يشد بعضها بعضاً تقف كلها في خط دفاع منيع وعرفت قيادة هذا التجمع بجبهة الهيئات⁽²⁹⁾

كانت جبهة الهيئات القائد الفعلي لثورة أكتوبر وقد أحست احزاب المعارضة أو جبهة الأحزاب المكونة من حزب الأمة والوطني الاتحادي والإخوان المسلمين بحتمية انتصار الثورة وازنت بين ذلك وبين دورها في تحرك الجماهير فالمعركة كانت بالفعل معركة القوى الديمقراطية المنظمة نقابياً والقادرة على اسقاط السلطة من داخل مؤسساتها فانزعجت جبهة الأحزاب من مجرد تصور انتصار هذه الحركة الشعبية الجديدة الآخذة في التنظيم المستقل ودون أن يكون لهذه الأحزاب من التأثير في تكوين الجبهة الوطنية للهيئات بما يصور مصالحها وللخروج من متاهات العزلة وبدافع الخوف من هذا التنظيم الشعبي المستقل نفذت جبهة الأحزاب الى الحكم

العسكري ليفسح لها المجال كطرف مقابل لجهة الهيئات في مقابل تقديم ضمانات لعبود ولكبار ضباط الجيش والشرطة⁽³⁰⁾

أدركت الجماهير طبيعة المساومة بين رجالات الأحزاب والعسكر فتجمعت في مقر أساتذة الجامعة وتحركت في موكب شعبي مرددة هتافها الشهير الى القصر حتى النصر كان القصد اثبات شرعية الشارع أمام عبود وكانت تلك أخطر المسيرات هدفها اقتحام القصر واجبار عبود على توقيع التنازل لجهة الهيئات ووصل الثوار الى القصر واحتلوا كل الشوارع والطرق بدءاً من كبري الخرطوم بحري الى القصر وبدءاً من ميدان أبو جنزير والى القصر وكذلك شارع الجمهورية وعند وصول طلائع المتظاهرين الى القصر تقدم ضابط مستخدماً مكبراً للصوت لمخاطبة المتظاهرين وعندما بدأ المتظاهرين للاستماع اليه تم قذفهم بقنابل مسيلة للدموع أعقبها وابل الرصاص فبدأت مطلق إلا الأرجل تتسارع على الأرصفة بحثاً عن طرق للهرب وسقط نحو ثلاثين شخصاً واكتظ مستشفى الخرطوم المركزي بالثوار وبدأت الهتافات الثأر الثأر⁽³¹⁾ واجهت جبهة الهيئات مساومة الأحزاب وعبود على حساب شهدائها ونضالها وواجهت سلبية الحزب الشيوعي السوداني فعجزت عملياً عن مواصلة الثورة بما يفوق مجرد اسقاط النظام العسكري أما الحزب الشيوعي فقد ساوم هو الآخر على جبهة الهيئات ومضى يفاوض عبر جبهة الهيئات و يفاوض عبر جبهة الأحزاب فنال عدداً من الحقايب الوزارية واستمرت المفاوضات يومي 29 و30 اكتوبر وتم اختيار سر الختم الخليفة كعنصر محايد بين الشارع والأحزاب رئيساً للوزراء وشكلت الحكومة من 16 وزيراً ثمانية لجهة الهيئات و5 من الأحزاب الأمة - الشعبي - الوطني - الشيوعي - الأخوان و3 من الجنوبيين⁽³²⁾ وتم الاتفاق على أن يكون برنامج الوزارة كالآتي :

1. العمل على تحقيق استقلال الجامعة
 2. العمل على تحقيق استقلال القضاء
 3. تصفية الادارة الأهلية
 4. اعداد لانتخابات الجمعية التأسيسية
 5. تصفية الحكم العسكري الحالي
 6. اطلاق الحريات العامة كحريات الصحافة والتعبير والتنظيم والتجمع
 7. رفع حالة الطوارئ والغاء جميع القوانين المقيدة للحريات في المناطق التي لا يخشى فيها من اضطراب الأمن
 8. اطلاق المعتقلين السياسيين والمسجونين من المدنيين في قضايا سياسية
9. أن ترتبط الحكومة الانتقالية بإنتاج سياسة خارجية ضد الاستعمار والأحلاف⁽³³⁾

تضمن الاتفاق أن يظل الفريق عبود رأساً للدولة في فترة الانتقال ويمارس سلطات مجلس السيادة وفق دستور 1956م حفاظاً على هيبة القوات المسلحة و الغيتكليف الفريق ابراهيم عبود واستبدل باختيار مجلس سيادة من الشخصيات الوطنية (34)سقط الفريق عبود ونظامه كثمره مرة وعمل غير صالح⁽³⁵⁾ و اعتقل جميع أعضاء المجلس العسكري ورحلوا الى سجن زانجيدار فورغرب السودان⁽³⁶⁾

الجدير بالذكر أن الثورة اتصفت بالقوة والصرورة حتى بلغت أهدافها وأعدت الحرية وانتبهت لها أجهزة الاعلام العالمية التي وصفتها بأنها أعادت للتاريخ الثورة الفرنسية ولقد طرحت ثورة أكتوبر قضية أخرى فقد واجهت الفئات التي تداولت الحكم منذ 1954م بالحقائق التالية أنه كان من الممكن أن تنشأ في السودان حركة سياسية مستقلة عن تلك الفئات التي تداولت الحكم مديناً وعسكرياً والتي ظلت توجه السياسة السودانية منذ نهوض الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الثانية وأن تتكون هذه الحركة من الناحية الشعبية من منظمات نقابية ومهنية وجماعات سياسية لم يكن لها تأثير كبير من قبل وأن تستطع هذه الحركة تغيير الحكم بطريقة مفاجئة للفئات ذات المصالح ومن بينها القادة السياسيون البرجوازيون وزعماء الطوائف وأن تشكل سلطة لاتنتهي لتلك الفئات وأن ينفصل جهاز السلطة الحاكمة وينضم لتلك القوى السياسية في الاضراب السياسي .

استطاع القضاة انتزاع القضاء وفصله عن السلطة وتبعته باقي أجهزة الدولة ولم تعد السلطة في القصر الجمهوري بل أصبحت في نادي الأساتذة بجامعة الخرطوم ومنه أثرت الحركة الشعبية على أجهزة الدولة الأخرى خاصة القوات المسلحة ورغم أنها لم تنفصل نهائياً عن السلطة الحاكمة⁽³⁷⁾ إلا أن هذه الحقائق مثلت درساً قاسياً ارتجفت له الفئات الاجتماعية من أصحاب المصالح والسلطة الدائمة كما ارتجفت له الدوائر الاستعمارية ولجأت القوى الرجعية الى الدين لتتخذ منه درعاً تحتمي به من أي خطر يهددها من مواقع الوعي ولم يكن استغلال الاسلام في الصراع السياسي قاصراً على السودان بل أن حركة التحرر الوطني العربية اتخذت هيئتها كثورة من أجل التقدم الاجتماعي والوحدة العربية⁽³⁸⁾

كانت البلاد فرحة بالحرية والديمقراطية التي استردها الشعب عبر ثورته الفريدة وملاّت الطموحات والآمال النفوس وعلا اسم الخرطوم شامخاً سامقاً⁽³⁹⁾ وانفعل الشعراء بالثورة فكتبوا أجمل الأشعار ومن ذلك رائعة السفير محمد المكي ابراهيم الذي احتفى بإنجاز الشعب السوداني فقال :

باسمك الأخضر يا أكتوبر الأرض تغني

والحقول اشتعلت قمحاً ووعداً وتمنى

الكوز انفتحت في باطن الأرض تنادي

باسمك الشعب أنتصر

حائط السجن أنكسر

كان أكتوبر في أمتنا منذ الأزل⁽⁴⁰⁾

ومن قصائد أكتوبر أيضاً ما كتبه الأستاذ فضل الله محمد (أكتوبر 21) التي صدح بها

الفنان محمد الأمين ومنها

يا أكتوبر واحد وعشرين**يا صحو الشعب الجبار

يا لهب الثورة العملاقة**يا ملهم غضب الأحرار⁽⁴¹⁾

دخلت البلاد في مرحلة الحكومة الانتقالية يحمل برنامجها اصلاحاً اجتماعياً وسياسياً

واقتصاديا يحقق تطور ونهضة الدولة السودانية و الحرية السياسية وينهي الديكتاتورية وحكم العسكر ويعود بالبلاد للحكم المدني الديمقراطي الذي ظل السودانيون يتمسكون به متى ما قفز العسكر على السلطة خاصة وأن الوضع السياسي الآن في السودان خير دليل على تمسك السودانيين بالحكم المدني حيث ظلت جموع الشعب السوداني تتظاهر في المدن والأرياف منذ انقلاب 25 أكتوبر 2021م وحتى يومنا هذا تطالب بعودة الحكم المدني للبلاد.

الخاتمة :

أصرت التنظيمات النقابية والاتحادات الطلابية والعمال والمزارعين والمهندسين والأحزاب السياسية وعدد من الضباط الأحرار المؤمنين بالحكم المدني على مناهضة حكم الفريق عبود الذي قفز على السلطة في نوفمبر 1958م وضيق الحريات وحل الأحزاب وفشل في معالجة مشكلة جنوب السودان التي استخدم في معالجتها القوة والتعتيم الإعلامي وكونت لجنة قومية لبحث أسبابها سمحت الحكومة لمناقشة مشكلة جنوب السودان بإقامة الندوات والمحاضرات ونجح اتحاد طلاب جامعة الخرطوم في الجمع بين زعيمى حزب الأمة والوطني الاتحادي مما أسفر عن تكوين الجبهة الوطنية.

فجرت دكتاتورية عبود قوى وطنية دعت للإضراب السياسي العام وتنامى المدد المعارض وامتألت الشوارع بالمتظاهرين وأحاطوا بالجيش غير مباليين بعد أن جرت محاولات تغري الجيش بحصد الجموع الشعبية الهادرة إلا أن عدد من الضباط الأحرار حالوا دون تنفيذ الخطة أعلن الفريق عبود في مساء يوم 21 أكتوبر 1964م حل المجلس الأعلى ومجلس الوزراء والمجلس العسكري لذا نستطيع القول بأن ثورة أكتوبر كانت تعبيراً عن سخط الشعب عن كل ما حدث في الفترة التي أعقبت الاستقلال.

توصلت الدراسة لعدد من النتائج وعدد من التوصيات .

النتائج :

- لعب الطلاب دوراً محورياً في الثورة.
- شكلت الثورة وجدان موحد لأهل السودان.
- إعادة الحكم المدني الديمقراطي .
- نصره الجيش للحركة الجماهيرية والوقوف مع مطالبهم .

التوصيات:

- العدالة في توزيع فرص العمل بين أبناء القطر.
- إقامة تنمية اقتصادية متوازنة في كل أنحاء القطر.
- ضرورة إبعاد الجيش عن العمل السياسي .
- أن تتبنى الجامعات السودانية انشاء مراكز للدراسات المناهضة للنظم الديكتاتورية وإرساء ثقافة النظم المدنية .
- أن تتضمن المناهج الدراسية نشر ثقافة الحكم البرلماني من خلال أنشطة الطلاب .

الهوامش :

- (1) المعتصم أحمد الحاج: لمحات من تاريخ السودان في العهد الوطني 1954م-1969م-م الكتاب 8 سلسلة الدراسات السودانية، مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية جامعة أم درمان الأهلية ، دار الزهراء الخرطوم (بدون تاريخ) ص 26-27.
- (2) الأمين عبد الرحمن أحمد عيسى: الفريق ابراهيم عبود وعصره الذهبي 1958-1964م ، مطابع السودان لعملة المحدودة (بدون تاريخ) ص 179.
- (3) نفس المرجع ص 180.
- (4) أحمد محمد شاموق :الثورة الطافرة ، دار الارشاد، الخرطوم ، ط 1، 1388هـ 1969م - ص 59.
- (5) نفس المرجع ص 60.
- (6) نفس المرجع ص 60.
- (7) عبد الماجد أبو حسبو : جانب من تاريخ الحركة الوطنية في السودان ص 183.
- (8) محمد المهدي ابراهيم: أمتي الوعي والحلم والغضب، دار جامعة الخرطوم، ط 4، 1984م، ص 165-167.
- (9) الأمين عبد الرحمن أحمد عيسى : مرجع سابق ص 183.
- (10) الأمين عبد الرحمن عيسى :مرجع سابق ص 183.
- (11) عصام الدين ميرغني : الجيش السوداني والسياسة دراسة تحليلية للانقلابات العسكرية ومقاومة الأنظمة الديكتاتورية في السودان ، الناشر أفرونجي للتصميم والطباعة ط 1، القاهرة ، 2002م ص 47.
- (12) عثمان سيد أحمد اسماعيل :نظرة في تاريخنا المعاصر 1956-1969م ، قسم التأليف والنش جامعة الخرطوم ،(بدون تاريخ) ص 17.
- (13) خليفة خوجلي خليفة : حتى متى حكومة طائفية -انقلاب عسكري انتفاضة ، مطابع سجل الغرب (بدون تاريخ) ص 403.
- (14) محمد محجوب حضرة :السودان خلال حكم عبود ،ج 1 1958-1964م (بدون تاريخ) ص 42.
- (15) حسن مكي :حركة الأخوان المسلمين في السودان 1944-1969م، سلسلة الكراسات غير الدورية رقم 16معهد الدراسات الآسيوية الأفريقية جامعة الخرطوم ، ط 1 أكتوبر 1948م ،المكتبة الوطنية للطباعة والنشر ص 13.
- (16) عبد الرؤوف بابكر السيد: الثورة من النفق الى الأفق ص 121.
- (17) خليفة خوجلي :مرجع سابق ص 133.
- (18) هنري رياض :موجز تاريخ السلطة التشريعية في السودان :دار الثقافة بيروت مكتبة دار النهضة، الخرطوم (بدون تاريخ) ص 99.
- (19) عبد الرؤوف بابكر السيد :مرجع سابق ص 122.
- (20) ديدار فوزي روسانو :السودان الى أين ، الناشر دار العالم الثالث ،نقله للعربية مراد خلاف، 2003م ص 140.

- (21) عبد الرؤوف بابكر السيد: مرجع سابق، ص122.
- (22) محمد عمر بشير: تاريخ الحركة الوطنية، مرجع سابق ص277.
- (23) ديدار فوزي: مرجع سابق ص141.
- (24) أحمد حمروش: مصر والسودان، كفاح مشترك، دار الهلال (بدو تاريخ) ص11-122.
- (25) عبد الرؤوف بابكر السيد: مرجع سابق ص122-123.
- (26) علي عبد الرحمن الأمين: الديمقراطية والاشتراكية في السودان، بيروت 1970، ص94.
- (27) أحمد سليمان: سياحة فكر وجولات قلم، دار الفكر للطباعة والنشر، الخرطوم (بدون تاريخ) ص271.
- (28) عبد الرؤوف بابكر السيد: مرجع سابق ص122-123.
- (29) خليفة خوجلي ص133.
- (30) أبو القاسم حاج حمد: السودان المأزق التاريخي وآفاق المستقبل ص402-404.
- (31) المرجع نفسه ص404+405.
- (32) عبد الرؤوف بابكر السيد: مرجع سابق ص125.
- (33) محمد عمر بشير: تاريخ الحركة الوطنية في السودان، مرجع سابق ص279.
- (34) المعتصم أحمد الحاج: مرجع سابق ص30-31.
- (35) صلاح محي الدين وقفات في تاريخ السودان: دار مكتبة الهلال، ط3، 1995، ص22.
- (36) عبدالفتاح محمد علي البصير: الدور السياسي للزعيم اسماعيل الأزهري، (بدون تاريخ) ص220.
- (37) محمد سعيد القدال: الاسلام والسياسة في السودان 1651-1985 م، ط1، دارالجيل، بيروت 1992 م ص146-147.
- (38) نفس المصدر ص147.
- (39) محمد سعيد محمد الحسن: الصحافة والسياسة وتقلبات السلطة، ط1 فبراير، الخرطوم 2000 م ص61.
- (40) الطيب علي عبدالرحمن: السودان التفرد والسماح أطروحة في حب الوطن، شركة مطابع السودان للعملة 2006 م، ص85-86.
- (41) نفس المرجع ص86.
- (42) <https://images.app0google/fkkaMHgNEMrtd72138>

الملاحق: مشاهد من ثورة 21 أكتوبر 1964م



<https://images.app0googl/fkkaMHgNEMrtd72138>









<https://images.app.google/FKKsMH9NFMrt7213842...>

دور العمل المعنوي والمعنويات في انتصار الثورة المهديّة (يونيو/1881 – يونيو/1885م)

مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر -السودان

د. محمد المصطفى أبو القاسم

المستخلص:

تحاول هذه الورقة تحليل وتقييم دور العمل المعنوي والمعنويات في إنجاح الثورة المهديّة، وتبحث في شخصية المهدي كرجل دين وزعيم ثائر، وميزاته الشخصية في القيادة ووضع خطط وبرامج العمل المعنوي وإنفاذها منذ فترة ما قبل المواجهة العسكرية ضد القوات المصرية وإثائها من ثم عن الاستيلاء على الخرطوم في 26/يناير/1885م. وقد حقق المهدي نجاحاً غير مسبوق في مجال العمل الدعائي والدعوي بكل أشكاله مستفيداً من فكرة المهدي المنتظر مما أكسبه شعبية وشرعة في إنتشار أفكاره في أوساط السودانيين المحيطين والقائمين ، وإستطاع إجتذابهم لمبايعته على الجهاد في سبيل الله ضد ظلم وفساد الحكم التركي - المصري .لذا فقد أصاب المهدي نصراً حاسماً في أغلب المعارك في حين أن الحكومة لم يكن لديها برنامج عمل معنوي ذو فطر ونتيجة لذلك فقد صارت القوات المصرية تقاتل في حالة من الخوف والذعر وزاد من هبوط معنوياتها ما قام به المهدي من عمل دعائي ناجح لذا فرغم ما كانوا يمتلكون من أسلحة نارية كافية ومدفعايات وخبرات لم يستطيعوا تحقيق نصر. ومما تقدم نستنتج: إن العمل المعنوي لا يقل أهمية عن الجوانب المادية ، وأن القوة المادية وحدها قد لا تكفي لتحقيق النصر في بعض الأحيان.إن الحكومة تجاهلت دوافع الثورة الوطنية الحقيقية وركزت في حربها الدعائية على أن المهدي ليس المهدي المنتظر ، وهو أمر لم يكن ذا تأثير.إن العمل بنظام الشورى والفريق المتجانس يؤتي ثماراً أكثر من الإنفراد بإتخاذ القرار.رغم اعتراف الجنرال غردون بأن ثورة المهدي ليست دينية وإنما ثورة أسبابها الفساد والقمع التركي ، إلا إنه لم يكن الرجل المناسب لإخلاء الحاميات المصرية من السودان بطريقة سلمية دبلوماسية تحقن دماء المصريين والسودانيين .

Umar The Role of Moral Operation and Morale in the Victory the Mahdist Revolution (June 1881- June 1885)

Muhammad Almstafa Abualqasim

Abstract:

This paper endeavors to analyses and evaluate the role of moral operations and morale in the victory of the Mahdistrevolution . It deals with the Mahdi s· character as a religious revolutionist ringleader, into personal qualities of leadership and into creation and execution of moral orientation programmers before and during the military confrontation with the Egyptian forces in the Sudan till he captured Al-Khartoum in 25 January 1885.The Mahdi achieved an outstanding success in all sorts of propaganda . He utilized the concept of the expected Mahdi, so his propaganda gained popularity and swift cliff union amongst most of the frustrated and discontent Sudanese people . He was able to attract them to pay homage to him in for the jihad in the path of God against injustice and immorality of the Turko- Egyptianrole .So the Mahdi achieved decisive victory in the most of battles ,meanwhile the government had no effective moral orientationprogrammers . As a result the Egyptian forces fought with uneaseconsciences and demoralized by the success of the Mahdistpropaganda , though they had enough firearms results :The moral orientations is very important like the other military forces , and in some cases material forces can not achieve victory alone .Ignoring the real causes of the Mahdistrevolt , the Government concentrated its propaganda on denying that Muhammad Ahmed is the expected Mahdi .To adhere consultation and attain homogenous of the staff is more fruitful than to be intransigent in views and neglecting to seek advice .Although the GeneralGordon confessed that the causes of the Mahdist revolt were corruption and suppression of the Turks ,He was not the suitable manto command the mission of evacuation of the Egyptian garrisons from Sudan by peaceful and diplomatic Maneuvering without bloodshedding of Sudanese and Egyptians.

مقدمة :

المقصود بالعمل المعنوي هنا ؛ كل الأساليب المعنوية التي استخدمت قبل وأثناء المواجهة العسكرية بين محمد أحمد المهدي والإدارة التركية - المصرية وجيشها في السودان على المستويين التكتيكي والاستراتيجي ، عبر الوسائل المتاحة في ذلك الزمان بغرض إحداث التأثير المعنوي الذي قد يؤدي إلى تحقيق الأهداف الاستراتيجية من قبل الطرفين . وفي الواقع فإن العمل المعنوي بأشكاله ووسائله المختلفة مهم للغاية في وقت السلم وأثناء الحرب على حدٍ سواء. ذلك لأنه مرتبط بالجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، إلى غير ذلك من الجوانب التي تخص كافة أفراد الشعب ومعنوياتهم. ويتميز العمل المعنوي كالإرشاد والتوجيه والحرب النفسية بأنواعها وأشكالها المختلفة- بأنه عمل يظل مستمراً دونما إنقطاع. فالحرب النفسية مثلاً، تكتيكية كانت أو إستراتيجية غالباً ما تسبق العمليات الحربية ، وتستمر أثناء العمليات ولا ينتهي دورها حتى بعد انتهاء العمل العسكري حيث تستمر عمليات الحرب النفسية الوقائية والتطعيم المعنوي إلى غير ذلك في وقت السلم استعداداً لمواجهة الأعداء في أي عمل عسكري مرتقب وهذا أمر طبيعي إذا علمنا أن لفظة الحرب مشتقة المعنى من الحرب ؛ وهو الجدل والخصام والحسد وكما يقول نصر بن سيار :

فإن النار بالعودين تركزى وإن الحرب أولها الكلام⁽¹⁾ :

وبهذا الفهم فما الحرب - بمستوياتها وأنواعها المختلفة - إلا وسيلة لتحقيق أهداف مرتبطة في حقيقتها بجوانب معنوية أهمها إمتناع الطرف الآخر بعدم جدوى القتال والمقاومة ، وأصوبية اللجوء إلى التفاوض وصولاً إلى الحلول السلمية ، أو الإحساس بالهزيمة والاستسلام وهو قرار ينتج عن دافع معنوي أيضاً . ويبدو أن العمل المعنوي يتميز بأنه أكثر شمولاً من العمل العسكري ، لأنه لا يوجه للمقاتلين فقط بل يستهدف :

«التأثير في سلوك وإرادة ومعتقدات وعواطف وإتجاهات كل العناصر المحلية والإقليمية والدولية ، معادية كانت أو صديقة أو محايدة»⁽²⁾. وقد نجح المهدي في استغلال تلك المميزات إلى أقصى درجة وعلى كل المستويات المحلية والخارجية .

تاريخ فكرة المهدي المنتظر :

ارتبطت الثورة المهديّة بفكرة المهدي المنتظرما أكسبها شعبية وسرعة انتشار في الداخل والخارج ، وذلك لتأصل الفكرة في أغلب بلاد العالم الإسلامي وهي فكرة تمت وترعرعت في أوساط كثير من الفرق الإسلامية بخاصة الشيعة ، وذلك منذ بداية خلافة معاوية بن أبي سفيان الأموي (40 هـ - 661م/60-680م) حيث تحولت الخلافة إلى ملك وراثي ، ثم جاء العباسيون وأقاموا خلافتهم باعتبارها موروثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تبع ذلك تفشي الظلم والاضطهاد والقهر والتسلط الذي استمر حتى أيام الأتراك العثمانيين وازداد الأمر سوءاً بالوجود الاستعماري الأوربي ، فتولدت فكرة ظهور منقذ ومخلص يملأ الأرض عدلاً وأمناً منذ ذلك الزمن وصارت المهديّة فكرة راسخة لدى كثير من المسلمين على مر الأيام بخاصة في مصر وشمال إفريقيا وبلاد ما يسمى

بالحزام السوداني وظهرت الأمامة عند الشيعة والولاية عند الصوفية والإصلاح عند أهل السنة ، في أمر المهدي . وقد أورد ابن خلدون في مقدمته أحاديث نبوية كثيرة في أمر المهدي منها الصحيح ومنها الضعيف⁽³⁾ . إلا أن هذه الأحاديث لم ترد في كتب الرواة المشهورين كالبخاري ومسلم ، ولا نجد ذكراً للمهدي المنتظر في القرآن الكريم ن بل ورد كثير من الآيات التي تدل على أن الهادي هو الله سبحانه وتعالى ، وعلى سبيل المثال ما جاء في سورة الكهف (الآية 17):

«...مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا» وفي سورة محمد (الآية 17):

((وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) أي زادهم هدىً وثباتاً وعلماً وبصيرة. ومهما يكن من أمر فقد أشار ابن خلدون إلى أن المسلمين في مختلف العصور يعتقدون أنه لا بد من ظهور رجل من آل البيت في آخر الزمان يؤيد الدين وينشر العدل ويتبعه المسلمون ويستولى على بلاد المسلمين كافة ويسمى المهدي⁽⁴⁾ . وبهذا الفهم فإن محمد أحمد بن عبدالله مهدي هداة الله ، وهو منتظر من قبل السودانيين الذين كانوا يعيشون ظروفاً سياسية واقتصادية واجتماعية سيئة في ظل الحكم التركي الشرقي. والمهدي لم يكن أول مهدي يظهر في بلاد العالم الإسلامي في العصور الوسطى والحديثة. ففي بلاد المغرب العربي ظهر محمد أحمد المهدي بن تومرت (524هـ- 1131م/ 541هـ- 1148م) وهو زعيم حركة الموحدين السنية الإصلاحية⁽⁵⁾ . ويقال ان شيخاً صوفياً وعالمياً جليلاً وولياً يدعى بدر الدين تمرد وقام على السلطة العثمانية وأعلن الثورة في إقليم دبروجان على أيام السلطان محمد الأول (1413-1421م) وكان يدعى أنه من الأسرة العثمانية الحاكمة ، وأنه هو المهدي المنتظر وأنه ينتظر الإشارة من عالم الغيب كي يقود تلاميذه ويستولي على السلطة⁽⁶⁾ . كما ادعى محمد عبدالرحمن السعدي المهدي في درعة بجنوب المغرب، وقام على أساس دعوته النظام السياسي للدولة السعدية في أوائل القرن السادس عشر الميلادي⁽⁷⁾ . وفي سنار ادعى الشيخ أحمد النحلان المهدي على أيام السلطان السناري بادي أبو دقن (1052-1088هـ/1643-1678م)⁽⁸⁾ . وفي بلاد الجولف بالسنگال أعلن أحد شيوخ التجانية نفسه مهدياً ليرشد الفوتاتورو إلى الإسلام الصحيح وكان ذلك في عام 1828 م⁽⁹⁾ .

وقد ادعى كثير من المصريين المهديّة منذ فترة سابقة للقرن التاسع عشر. وفي عام 1875م تحديداً ادعى المهديّة شخص يدعى محمد الطيب وثار كثير من قرى الصعيد تأييداً له وبدأ في حركة إصلاحية في مديرية جرجا إلا أنه قتل ومن معه ودمرت قريته .وبعد فترة من الزمن تجرأ أحد المسنين وتحدث عن ذلك المهدي فحكم عليه الخديوي إسماعيل بالإعدام⁽¹⁰⁾ . وعلى أيام المهدي نفسه ادعى رجل يدعى فخر الدين حسن مهلاوي المهديّة في عام 1884 وكتبه المهدي في هذا الشأن راجياً هدايته⁽¹¹⁾ .

أما محمد أحمد بن عبدالله المهدي فقد أعلن أنه المهدي المنتظر في يونيو 1881م في وقت كانت البلاد تعيش في حال من الظلم والقهر والجشع والفساد الاجتماعي ووجود أجنبي غير مرغوب فيه مما جعل الجنرال غردون يقول أن ثورة المهدي ليست دينية بل سياسية ضد

ظلم الأتراك الشراكة ، وأن الدين غشاء خارجي .⁽¹²⁾ ويقول يوسف ميخائيل وهو قبطي من مواليد الأبيض - أن الناس كانوا ينتظرون قدوم المهدي المنتظر نظراً لسوء الأحوال في السودان .⁽¹³⁾ لذا فإن كان نصيب تلك الحركات التي مر ذكرها الفشل ،⁽¹⁴⁾ فإن ثورة محمد أحمد المهدي حققت نجاحاً غير مسبوق، إذ تمكن المهدي من وضع أسس لدولة عظيمة متكاملة البناء بعد طرد القوى الاستعمارية . ويبدو ان هنالك عوامل كثيرة أدت إلى ذلك النجاح ، إلا أن هذه الورقة تحاول البحث في دور العمل المعنوي والمعنويات في إنتصارات الثورة بإعتباره من أهم العوامل ، ومتابعة الكيفية التي أدار بها المهدي الشؤون المعنوية منذ بداية الثورة حتى تم له السيطرة على البلاد بمهارة وإقتدار .

شخصية الإمام محمد أحمد المهدي (1844/8-1885/6م) :

هو رجل شاب حباه الله سبحانه وتعالى بصفات شخصية ومواهب قيادية جعلت معاصريه يصفونه بأنه شخصية كارزمية يمتلك القدرة على إجتذاب الناس والتأثير في نفوسهم ، مع تمتع بوسامة تضي عليه هالة من الجلال والمهابة ، وصفه الأجنبي أوهرولدر (Father Oherwalder) قائلاً :

«... منذ أيام حياته الأولى ظهر للناس مدى جديته وتشده... مظهره أخاذ. فهو طويل القامة ، قوي البنية ، لا تفارق وجهه الإبتسامة... يسحر المستمع بحديثه...»⁽¹⁵⁾
كان خطيباً بارعاً جهوري الصوت تصل كلماته لآلاف المصلين والمستمعين عقب كل صلاة ، يقول عنه ونجت باشا (F.R Wingate) :

«...إن المستمعين لخطبة ووعظه وإرشاده كانوا يضربون صدورهم ويبكون...ان شكله يتغير وتظهر القوة الكامنة فيه ... كانت حُطبه تحرك مشاعر الناس ... ما من شك في أن المهدي كان يتمتع بأذكي عقلية وأصفى وضوح رؤية أكثر من أي شخص في بلد المليون ميل مربع الذي صار فيه صاحب الكلمة العليا بلا منازع .⁽¹⁶⁾

الشيخ محمد شريف وممارسة الحرب النفسية والدعاية ضد المهدي :

بعد أن حفظ القرآن الكريم ودرس اللغة العربية وتفقه في الدين على أيدي كثير من الشيوخ ، دخل في سلك الصوفية مع الشيخ محمد شريف نور الدايم السماني في أم مرح حتى عام 1878م حيث ظهر للشيخ مدى قوة شخصية تلميذه وإنضباطه وما يتحلى به من صفات حميدة فقرّبه وصار يعامله معاملة خاصة وشيخه ومنحه راية وأفسح له المجال لنشر الطريقة السمانية. لكن حين أحسّ المهدي بإزدياد أعداد مريديه أسر لشيخه بأنه المهدي المنتظر ، وعرض عليه أن يكون وزيراً ومستشاراً له ، فزجره الشيخ وعقد مجلساً لاثناؤه عن ذلك في الجزيرة أبا وحاول إغراءه بالمال والعقار لترك أمرالمهدية فأبى .⁽¹⁷⁾ فما كان من الشيخ إلا أن أمر أتباعه بضربه إذا ما حاول إجتذابهم إلى دعوته، بل ذهب أبعد من ذلك إذ حاول إقناع قائمقام الكوة بزج محمد أحمد في السجن قمعاً لحركته ودرءاً لحظر استفحال أمره ولم ينجح في ذلك ، فلجأ إلى تعيين شيخ في قرية قريبة من أبا لإجتذاب المريدين وإيقاف إنضمامهم إلى جانب المهدي ، دون جدوى .

وصل عداء الشيخ محمد شريف للمهدي درجة جعلته يستخدم القوة الجنائية ضده فتعرض للضرب وكسرت يد علي ود حلو في تلك العملية المحدودة التي كان الغرض منها تخويف المهدي وإثناؤه عن فكرته وظل الشيخ محمد شريف يمارس عمله الدعائي ضد المهدي وفكرته ووقف إلى جانب الحكومة ، ويقال أنه كتب قصيدته الشهيرة عام 1882م بإيعاز من عبدالقادر باشا حلمي أنكر فيها إدعاء محمد أحمد المهديوية إلا أنه لم ينكر ما يتحلى به المهدي من صفات حميدة وثبات وعزم .⁽¹⁸⁾

وهنا يبدو تساؤل ؛ لماذا وقف الشيخ محمد شريف هذا الموقف ؟

أولاً: يقال أن الشيخ نفسه كان طامعاً في السلطة قبل ظهور محمد احمد المهدي وتبنى مشروعاً استراتيجياً يهدف إلى إيجاد بديل صوفي لسلطة الأتراك في السودان إلا ان شقيقه عبدالمحمود نور الدايم أثنائه عن تلك الفكرة على إعتبار أنها جري وراء السلطة والجاه ليس غير .⁽¹⁹⁾

ثانياً: يبدو أن فكرة المهديوية ولدت عند المهدي ولها أسنان وذاع صيت المهدي بين الناس مما غطى على شخصية شيخه الذي ربما كان يمني النفس بالوصول إلى مكانة رفيعة لما له من علاقة بالحكومة بحكم مركزه الصوفي،⁽²⁰⁾ بل يقال أنهرشح نفسه لدى السلطان العثماني ليقوم بإصلاح الأحوال في السودان ومعارضة المهدي ومهدويته ومناهضة النفوذ البريطاني في السودان ، ولذا يبدو أن تضارب مهديوية المهدي مع مصالحه الشخصية هو الذي جعله يقف ذلك الموقف وينظر للمهدي نظرة لا تخلو من غيرة وحسد وظل معارضاً للمهدية ووقف إلى جانب الحكومة إلى أن سقطت الخرطوم فصار أمام الأمر الواقع وإنضم إلى المهدي .

ظهور استراتيجية المهدي الإعلامية والتخطيط المبكر للعمل المعنوي :

قرر المهدي الإنضمام إلى شيخ سماني آخر هو الشيخ القرشي ود الزين الذي لم يتردد في تلبية رغبته رغم محاولات الشيخ محمد شريف الرامية إلى ابعاده عن الشيخ القرشي والطريقة السمانية. وقد أثنى عليه الشيخ القرشي وزوجة ابنته وشيخه ومنحه الإجازة ولم ينكر عليه مهديوته⁽²¹⁾ وقبل وفاته أوصى بتنصيبه شيخاً على أتباعه فوقف إلى جانبه آل الشيخ القرشي وأولاد الشيخ أحمد الطيب البشير ومؤسس الطريقة السمانية، وتجرع الشيخ محمد شريف كأس الهزيمة المعنوية النكراء في حربه الدعائية ضد المهدي ، بخاصة حين أعلن المهدي أن سبب الخلاف مع الشيخ محمد شريف هو أنه كان يقوم بأعمال مخالفة للكتاب والسنة .⁽²²⁾ وتحت رعاية شيخه القرشي ظهرت استراتيجية المهدي الإعلامية وبدأ في نشاطه المعنوي التعبوي بزيارة كثير من القرى والمدن النيلية ن إلا أنه ركز على كردفان وعاصمتها الأبيض فزارها في عام 1879م ربما لأسباب كثيرة كالاستطلاع والتأكد من صلاحيتها كمنطقة لتجمع قبلي بعيدة عن السلطة المركزية ، كما أن الأبيض تمثل ملتقىً لطرق تجارية مهمة حيث يتواجد فيها كبار التجار من جعليين ودناقلة وغيرهم ، وأن أهل كردفان ودارفور يقدرون كل القادمين من جهة الشرق (دار صباح) . ويبدو أن المهدي قرر الإنطلاق من كردفان فسجل زيارة أخرى للأبيض برفقته الخليفة عبدالله حيث بدأ في إنفاذ برنامجه التعبوي ولقاءاته الجماهيرية بالطواف على المدن والقرى وتقديم برامج دعوية

ودعائية،⁽²³⁾ بغرض نشر فكرة المهديّة في أوساط المصلين، وعقد اللقاءات التنويرية مع زعماء الصوفية وعامة الناس، وبث رسائله الخاصة بتردي الأحوال وتفشي الظلم والفساد الاجتماعي وترك السنن، وإعلان أن مهديته جاءت بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعوة الناس للإضمام إليه.⁽²⁴⁾ وبالإضافة إلى نشاطه الدعوي فقد إنتهج المهدي أسلوباً دعائياً فريداً مكنه من تحقيق أهدافه المعنوية.

فبدأ بتوحيد زي أتباعه بإرتداء الجبة المرقعة والطاقيه ذات الشكل المخروطي والطريقة المعينة في لبس العمامة بتوفير جزء منها يتدلى على الكتف الأيسر (العزبة)، وحمل العصا والمسبحة والإبريق، وهذا يعطي الإحساس بالإنتماء الفعلي للجماعة والإنضباط والشعور بالمسؤولية والإلتزام وفي ذات الوقت هذا المظهر يعتبر وسيلة اتصال مرئية تحتوي على رسالة مدهشة ومختصرة، فحين يشاهد المواطن هذا الزي المميز تصل إليه الرسالة فيفك طلاسمها بخياله، فالجبة المرقعة قد تعبر عن الزهد إلا أنها قد تدل أيضاً على الوحدة وقوة التنظيم والإنضباط، إضافة إلى الأهمية التكتيكية في ميدان القتال، كما أن لبس الطاقيه المخروطية وطريقة لبس العمامة تميز أنصاره عن غيرهم. أما الإبريق فيعبر عن الطهر وكثرة الوضوء وأداء الصلوات، المسبحة تعبر عن التقوى والورع، والعصا سلاح للدفاع عن النفس والجهاد في سبيل الله، هذا إضافة إلى العرض العسكري الأسبوعي فيما بعد وقيام شباب الأنصار في مقابلة شباب الختمية. وعلى هذا فبمجرد أن تكتمل هذه اللوحة في ذهن المواطن يتولد لديه الإحساس بضرورة الوحدة والإنتماء، والرغبة في الإضمام لأنصار المهدي في تلك الظروف السيئة التي كان يعيشها السودانيون تحت نير قوى نظامية أجنبية. وبالإضافة إلى ذلك فإن المهدي ظل يمارس الدعاية المسموعة وذلك بالطواف ليلاً مع أتباعه حتى طلوع الفجر وهم يرددون الجلالات مثل «الدايم هو الدايم الله» وقد نقل لنا يوسف ميخائيل صورة متكاملة لذلك النشاط ونتائجه قائلاً:

«... وصارت أهل كردفان تزوره لأجل أخذ البركة ... واشتهر اسمه... والرجل صاحب علم زادت محبته في قلوبهم وفرحوا به فرح شديد من شدة تواضعه وحلاوة مقاله ... كأنه يسقي في أرض عطشانة حتى غرس محبته في قلوبهم وحفر الأساس في كردفان ... وفي أثناء سفره ينزل مع المشايخ ... وكافة رؤوس القبائل المشهورة وتراكت عليه العربان في الطريق والحللات...»⁽²⁵⁾. وفي طريق عودته من الأبيض طاف بمملكة تقلي وضمن وقوف الملك آدم دبالو في الحياض وعدم إفشاء أسرار المهديّة.⁽²⁶⁾ وصنع المهدي خطة إعلامية ارتكزت على الإقناع والتبشير والتحذير مع استمرار الدعوة والإرشاد والتنوير المستمر عن طريق الرسائل والمنشورات واللقاءات وإرسال المناديب إلى القبائل والجهات المختلفة دحماً للشائعات وقد اتبع المهدي نظام الشورى، فما كان يقطع في أمر إلا بعد موافقة مجلسه ونلاحظ أنه كان يخطط لهذا العمل وينفذه بنفسه.

إتصل المهدي بكبار الشيوخ والزعماء والفقهاء ودعاهم لمبايعته على الجهاد في الجزيرة أبناً ونتج عن ذلك وقوف كثير من الشخصيات المهمة كالشيخ محمد الطيب البصير وغيره⁽²⁷⁾. ولم تكن الحكومة على علم بما يدور، ولم يهتم رؤوف باشا بأمر المهدي رغم تحذير الشيخ محمد شريف إلا بعد أن إطلع على منشورات المهدي وجاءه التأكيد من المهدي نفسه.

بدايات المواجهة العسكرية واستعداد الحرب النفسية :

كُلّف محمد بك أبو السعود بالقاء القبض على المهدي واستخدم شتى الوسائل كالاستعانة بأقرباء المهدي مستغلاً علاقة رؤوف باشا بهم كأحمد شرفي وغيره ، ووصل إلى درجة استخدام وسائل التهديد والتخويف، إلا أنه لم يحقق نجاحاً بل فوجئ بمدى صلابة المهدي وقوة عزمته ، والمعنويات العالية التي يتمتع بها اتباعه واستعدادهم للجهاد والموت في سبيل الله وتصريحهم بذلك أمام ابو السعود نفسه وذلك على الرغم من قلة عددهم في ذلك الوقت فعاد أبو السعود بخفي حنين في 1881/8/7 م .

أيقن المهدي أن المواجهة العسكرية صارت أمراً متوقّعا ولا بد من المحافظة على الروح المعنوية العالية فجمع المجاهدين وخطب فيهم قائلاً :

«... إن الترك رجعوا لطلب المدد وسيعودون لقتالنا فمن كان منكم خائفاً على أولاده وأمواله فليخرج منا فنحن سامحون له وبيعتنا التي في أعناقكم ليس عليكم فيها حرج فإن سلمنا فعودوا إلينا...» فأثارت هذه الكلمات مشاعر انصاره الحاضرين فقام أحدهم وقال :

«... يا سيدنا نحن بابعناك على الموت ورضينا بذلك ولا نرغب بنفسنا عن نفسك بل نحن معك حيثما توجهت فمر بما شئت فنحن لك سامعون ولأمرك مطيعون...»⁽²⁸⁾

يذكرنا هذا الموقف بموقف الأنصار في المدينة المنورة حين أراد الرسول صلى الله عليه وسلم التأكد من صدق ولائهم ومشاركتهم في محاربة الكفار قبل غزوة بدر الكبرى⁽²⁹⁾. فقد تصدى المهدي وأنصاره لسريتين بقيادة محمد أبو السعود الذي جاء ليقضي على المهدي فقضى المهدي على تلك القوة العسكرية برجاله المسلحين بالسيوف والرماح في 1881/8/12 م.

تحدث كثير من المصادر عن أسباب هزيمة تلك القوة المسلحة بالأسلحة الحديثة كعدم وجود قيادة موحدة للقوة ، وأن أبو السعود لم يكن مؤهلاً لقيادة تلك القوة ، ويقول شهود عيان أن بعض جنود الحكومة ماتوا برصاص زملائهم⁽³⁰⁾ إلا أن تلك المصادر تجاهلت المعنويات العالية التي كان يتمتع بها المجاهدون ، وقوة إيمانهم بقضيتهم والتفافهم حول قيادتهم على عكس قوات الحكومة التي كانت تفتقر إلى القيادة ودوافع القتال وبالتالي انخفاض روحهم المعنوية فتجرعوا كأس الهزيمة ولم ينج منهم إلا العدد القليل الهارب وجمعت اسلحتهم غنيمة لجيش المهدي . ويهمننا هنا ان هذا النصر زاد من ارتفاع معنويات المجاهدين، كما أدى انتشار أخباره إلى توافد المواطنين إلى المهدي بأعداد كبيرة . وفي طريقه إلى جبل قدير حاول الملك المختار اعتراض جيش المهدي في جبل جرادة فهُزم وقتل في 24/أكتوبر 1881م. كما حاول راشد بك استغلال معاناة المهدي وجيشه من داء الحمى فجهز 400 جندي نظامي وألفاً من الشلك لمباغتته والقضاء عليه إلا أن امرأة تدعى رابحة الكنانية أسرع وأبلغت المهدي بخبر مسير تلك القوة فتصدى لها بجيش قوامه 8.000 مقاتل في حين أن عدد الذين قضاوا على قوات أبو السعود كان 350 مقاتلاً فقط بما يشير إلى نجاح عمليات المهدي في مجال الدعاية والاستنفار وشحن الهمم ففي 1881/12/9م تدمير قوات راشد بك ولم ينج منهم إلا القليل وجمعت الاسلحة والذخائر غنيمة لجيش المهدي ، والأهم من ذلك أن خبر

إنتصارات المهدي انتشر في كل أنحاء السودان وشاع بين الناس أن نيران جيش الحكومة لا تصيب أنصار المهدي وأن المهدي يحارب بسبف القدرة... إلى غير ذلك⁽³¹⁾.

حشدت الحكومة 13 سرية (حوالي 1300 مقاتل) و 1500 من عساكر الخرطوم وسنار والأبيض بقيادة يوسف الشلاحي الذي حاول إقناع المهدي بالتسليم وكان طبيعياً أن لا يجد من المهدي سوى السيف فقد بلغ عدد المقاتلين في جيش المهدي هذه المرة خمسة عشر ألف مقاتل وفي يوم الإثنين 29/مايو/1882 خرج المهدي بعد صلاة الصبح شاهراً سيفه وخاطب المجاهدين وحرصهم على القتال فتم تدمير قوات الشلاحي ولم ينج منهم إلا الهارب .

كان طبيعياً أن تخلق هذه الانتصارات رأياً عاماً في أوساط أغلب السودانيين عن سمو مكانة المهدي ومدى قوته كزعيم ، وصدق مهدويته، ونتج عن ذلك تضاعف أعداد المقاتلين تحت قيادته ، كما توافد عليه كثير من شيوخ القبائل والفقهاء ، وقد عبر عن ذلك نعوم شقير قائلاً : «...وهذا النصر المتتابع...أدهش عالم السودان كافة وحط من كرامة الحكومة في أعينهم

بقدر ما رفع من كرامة محمد أحمد فلقد كان للحكومة قبل الآن سطوة عجيبة في البلاد حتى كان جنديها الواحد يهرب رهطاً من الأهلين وقد مرَّ عليها ستون سنة ونيف لم تظهر خلالها بغير مظهر القوة والبطش...والآن قام فقيه خامل الذكر وضيع الشأن بنفر معدود من المستضعفين الجياع فتغلب على سراياها القوية...وما زال يهددها ويستعد لمناوئتها فلم يبق للعامة ريب في أن هذا الفقيه هو المهدي المنتظر ، وأن نصره من الله فهاجروا إليه من كل فج...»⁽³²⁾. وبدأ المهدي في استثمار ذلك النجاح وفاستنفر بعض الشيوخ والزعماء وأرسل الدعاة لمبايعة الناس وحرصهم على الجهاد ، فظهر أحمد المكاشفي الذي استولى على النيل الأزرق وشمال سنار وقطع خط التلغراف الذي كان يصل سنار بالخرطوم ، وفضل الله ودكريف الذي قطع خط التلغراف ما بين الكوة والمسلمية في نهاية عام 1882م وقد انضم كثير من عرب رفاة الهوى إلى ود الصليحي والفقيه محمد زين التكروري وود برجوب معلنين الجهاد ويرددون الجلالات منها :

«الجنة جات قريبة تحت المدفع وتحت الزريبة»

وما إن وصلت أنباء إنتصارات المهدي إلى بعض القبائل الجنوبية ببجر الغزال حتى هاجر إليه الكثيرون وبايعوه وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم ولم يكرههم على شيء بل بشرهم بالاستقلال التام قائلاً :

(...أذهبوا وأخرجوا الترك من بلادكم ومتى ما أخرجتموهم فلتكن بلادكم لكم لا ينازعكم فيها أحد ...) وهذا قرار فيه بعد نظر فقد كان لهم عدة وقائع مع جيش الحكومة وظلوا يرددون الجلالة «الدائم هو الدائم الله» ومن جانب آخر فإن تلك الإنتصارات قادت إلى إنتصارات أخرى إذ خاضت بعض القبائل في كردفان ، كالبديرية والحوازمة والحممر والغديات معارك ضارية ضد جيش الحكومة الذي تقهقر إلى الأبيض .⁽³³⁾

يرى هولت (P.M.Holt) أن ذلك يكشف عن ضعف الجانب العسكري للإدارة التركية - المصرية ، وأن قوات الحكومة - رغم تفوقها على قوات القبائل المذكورة من ناحية العتاد الحربي

كألسلحة النارية الخفيفة والمدفيعيات ، إلا أنها كانت تفتقر إلى المرونة والتأقلم والإخلاص والتفاني وعدم توفر القوى البشرية بالمقارنة مع الثوار.⁽³⁴⁾ إلا أنه لم يتحدث صراحة عن الإعداد المعنوي والروح المعنوية العالية التي يتمتع بها الثوار الذين يقاتلون تحلت قيادة وطنية ثائرة ضد قوى استعمارية ، تشدهم عدالة القضية وتدفعهم إلى القتال بشكل تلقائي ، الأمر الذي لا يتوافر لعساكر الحكومة وضباطها ، مع توافر معلومات مؤكدة عن عدم رغبة المصريين في العمل في السودان منذ بداية الوجود التركي - المصري في السودان⁽³⁵⁾.

كان من الطبيعي - بعد هذه الإنتصارات - أن تبدأ دولة المهدي في الظهور على مستوى الرئاسة والقيادات الفرعية في سائر الأقاليم ، وأنشئ بيت المال ودار القضاء ، وقسم الجيش إلى ثلاث رايات تشتمل كل راية على قبائل معينة متجانسة مع بعضها البعض من الناحية الإجتماعية ، ومتشابهة من حيث أساليب القتال ومهارات الميدان واستخدام الأسلحة المختلفة، وأدوات القتال كالخيول والجمال والحمرير والطبول والمزامير كالأمبابة مثلاً، هذا بالإضافة إلى طابور استعراض الجيش كل يوم جمعة ، وكل ذلك ربما كان بغرض المحافظة على التوازن النفسي لكل جماعة وأقبيلة مقاتلة وبالتالي ضمان المعنويات العالية والأداء الجيد في مساحر العمليات⁽³⁶⁾.

سقوط بارة والأبيض :

على مشارف الأبيض نجح المهدي في الاتصال بالمواطنين وعلى رأسهم العلماء والتجار وكبار الأعيان وبعض الجند، فخرج الكثيرون منهم في جنح الظلام وإنضموا إلى المهدي ، إلا أن القوات الرئيسية لم تستجيب لنداءاته وقتلت مناديه وبعد يومين (8 سبتمبر/1882م) إقتحم المهدي المدينة بخمسين ألف مقاتل إلا أنه لم يحقق نجاحاً ومُنِي بخسائر فادحة مما جعل الخليفة عبدالله يقترح الإنسحاب إلى قدير. إلا أن المهدي أخذ برأي إلياس باشا أم بربر الذي كان مصرراً على عدم الإنسحاب وضرب الحصار على المدينة وقد كان وبعد أربعة أشهر يئس الجند واشتد بهم الجوع حتى أكلوا الكلاب والقطط وغيرها فتحطمت معنوياتهم وبدأوا يتسللون إلى معسكر المهدي⁽³⁷⁾. وحاول محمد سعيد باشا مدير كردفان إنقاذ الموقف ببث الأمل في نفوس الجنود بالتأكيد على قرب وصول النجدة من الخرطوم ، لكن جاءت الأنباء بما لا تهوى نفسه فقد سقطت بارة في 5 يناير/1883م بعد أن إنضم النور عنقرة إلى جيش المهدي ومعه 2,000 جندي ، وأقنع قادة الحامية بالتسليم ، ولم يصدق جند الأبيض ذلك وإعتبروها شائعة أطلقها جيش المهدي ، فجاءهم ضابط من ضباط حامية بارة وأكد لهم سقوط المدينة ونقل لهم أخبار الثورة في سنار واستحالة ورود إمدادات من الخرطوم فأنهارت معنويات الجند إلى أقصى درجة ، وبالمقابل فقد ارتفعت معنويات الثوار ورأى المهدي أن الوقت قد حان لإقتحام الأبيض إلا أن أحد الأجانب توسط بين الطرفين وأقنع رجال الحامية بالتسليم دون قتال وفي 19/يناير/1883م خرج جميع أفراد الحامية لمقابلة المهدي وسلموا أنفسهم⁽³⁸⁾.

نلاحظ ان الخسائر الفادحة التي مني بها جيش المهدي أثناء محاولة إقتحام مدينة الأبيض لم يكن لها آثار معنوية سالبة بدرجة كبيرة في أوساط قوات المهدي مما يدل على مدى نجاح

عمليات الإعداد المعنوي التي كان ينفذها المهدي بنفسه في ميادين القتال ، كما أن التركيبة القبلية التي بُنى عليها جيش المهدي كان من شأنها ان تخلق روح التنافس بين الجماعات القبلية المقاتلة والتفاني من أجل تحقيق النصر والإنتقام من الأعداء والثأر لاشقائهم وأبناء عمومتهم الذين حصدهم نيران قوات الحكومة ، لذا لم تسجل لنا المصادر حالة هروب واحدة من جانب قوات المهدي في كل المعارك التي دارت رحاها بين الطرفين .

كان استرداد الأبيض يعني سيطرة المهدي على كل كردفان وبالتالي عزل دارفور عن الخرطوم ولم يكن أمامه سوى التقدم شرقاً وإحكام السيطرة على المدن النيلية ومن ثم ضرب حصار على الخرطوم ، لكن مع فرحة النصر والمعنويات العالية ظهرت بوادر تطلعات بعض زعماء القبائل الكردفانية الذين شاركوا في المعارك نتج عنها خلاف مع الخليفة عبدالله بسبب تقسيم الغنائم مما أدى إلى تمرد الفكي المنا اسماعيل شيخ قبيلة الجوامعة ، وعجيل ود الجنقاوي من كبار مشايخ الرزيقات. لم يتردد المهدي في قمع ذلك التمرد بالطريقة التي كان يعتقد أنها تحفظ للشورة كيائها ووحدها في تلك الظروف وتكونت قوات من غير قبائل كردفان تمكنت من القضاء على حركة اسماعيل ومن معه ، وعلقت رؤوسهم في سوق الأبيض .⁽³⁹⁾

كان رد الفعل عنيفاً في أوساط جيش المهدي وعامة الناس نتج عنه رأي عام حول الخليفة عبدالله والظعن في تصرفاته سراً وجهراً مما جعل المهدي يصدر منشوراً في 26 يناير/1883 يتحدث فيه عن الخليفة عبدالله ، فضله ومكانته في المهديّة، أمراً للناس بطاعته وعدم سبه.⁽⁴⁰⁾ لكن الحادثة تعبر عن عدم تأصل الروح القومية في نفوس كثير من زعماء القبائل مما إنعكس على تصرفاتهم ومواقفهم السلبية حيال سياسة الدولة فيما يتعلق بالقضايا العامة والإهتمام بمصالح قبائلهم كتقسيم الغنائم وتولي المناصب العليا والتنافس عليها . ولم يتطور الأمر أكثر من ذلك ربما نظراً لحساسية الموقف العملياتي ومكانة المهدي في نفوس القادة والزعماء ، وفرحة السودانيين باسترداد الأبيض. فقد هاجر كثير من الزعماء إلى المهدي كعثمان دقنة من سواكن وعبد الله ود سعد من المتمة، وبدأ المهدي في تطوير عمله الدعائي على المستويين المحلي والإقليمي فعمت رسائله كل أنحاء السودان مبشراً بالنصر وحثاً الناس على الإنضمام لأمرائه في الأقاليم أو الهجرة إليه، كما خاطب رابع فضل الله في بلاد الفراتيت وأرسل خطاباً ثانياً للسيد محمد بن علي السنوسي في 12/مايو/1883م آملاً في إنضمامهما إلى المهديّة .⁽⁴¹⁾

حملة هكس باشا ومعركة شيكان :

هكس باشا هو عقيد إنجليزي متقاعد إتفقت معه الحكومة المصرية ليعمل رئيساً لأركان الجيش المصري في السودان في يناير 1883م وكوّن له جيش من فلول جيش عرابي ليفك به حصار الأبيض، لكن هكس باشا رغم دحره لقوات المهدي في معركة المرابيح بجنوب الجزيرة في 29/أبريل/1883،⁽⁴²⁾ فقد إرتكز في الدويم ليجعلها قاعدة له للدفاع عن سنار والخرطوم ، مبرراً ذلك بأنه موجود وسط أعداء شرسين ، كالمسيح وسط اليهود،⁽⁴³⁾ وأن الجنود المصريين غير مدربين ولا يصلحون للقتال ولا يرغبون في البقاء في السودان، كما لا توجد قوات صديقة تتعاون معه أثناء سير

الحملة إلى الأبيض وطالب بأن ينصب قائداً على الجيش وإبعاد سليمان باشا وإمداده بخمسة آلاف جندي إلى غير ذلك .⁽⁴⁴⁾

لكن ما إن تم ترقيته وتنصيبه قائداً أعلى للجيش حتى نسي كل شئ وإرتفعت معنوياته وصار يمتدح جنده المصريين وشرع في التقدم نحو كردفان في شكل مربع أو صندوق ضخم في 24/ سبتمبر/1883م⁽⁴⁵⁾ فهو إذا لا تحركه دوافع معنوية راسخة ولا يقاتل إلا في إطار الإلتزام المهني في مواجهة قيادة وطنية ثائرة لها أهداف إستراتيجية وجيش وطني يتمتع بروح معنوية عالية تفوق تصور هكس باشا .

لم يواجه المهدي صعوبة في التخطيط للقضاء على الحملة فهو يمتلك الأرض وجيشاً وطنياً من المجاهدين وعناصر محلية وطنية ، وقد أفاد المهدي كثيراً من تجاربه السابقة ووضع خطة ذكية ترمي إلى التأثير المعنوي على الحملة وقيادتها أثناء سيرها باستخدام قوة محدودة للقيام بعملية خاصة في إطار حرب نفسية تكتيكية تتلخص في :

1. متابعة سير الحملة وتعقبها ومناوشتها دون الإلتحام المباشر بجندها .
2. عزل المربع من العناصر المحلية .
3. منع الإبل والدواب من المراعي وطمر الآبار وعدم إرشاد الحملة لأماكن المياه .
4. ربما خطط المهدي لوضع جيش هكس في أرض القتل بواسطة دللاء الحملة التابعين للمهدي أصلاً.⁽⁴⁶⁾

وقد تم بالفعل إنفاذ تلك الخطة فمات الكثير من دواب الحملة بسبب الجوع والعطش وأخلى السكان كل القرى من الدويم حتى الأبيض وتركوها خاوية على عروشها ، مع طمر الآبار ، كما نفذ الدلاء الخطة ووضعوا الحملة في أرض القتل. أما قوات الحملة فقددب اليأس في أوساط الضباط والجنود وإنهات المعنويات بدرجة شجعت أحد أمراء المهدية ليقترح على المهدي إقتحام المربع⁽⁴⁷⁾ . وقد حاولت قيادة الحملة خلق توازن نفسي للقوات بإطلاق شائعة أمل في أوساطهم ، أن هنالك قوات قادمة من مصر قوامها آلاف المقاتلين من طائفة الطريقة السنوسية بدعم من السلطان العثماني عبدالحميد وستلحق بالمربع في شركيلة ، ولم يحدث ذلك ،⁽⁴⁸⁾ فكان ضرر تلك الشائعة أكثر من نفعها إذ أصيب الجند بالإحباط وبدأ بعضهم في محاولات هروب إلى معسكر المهدي وبالفعل فقد هرب ضابط صف صحفي وإنضم لمعسكر المهدي وأفشى كل أسرار الحملة⁽⁴⁹⁾ . استبشر المهدي خيراً ورأى أن يخاطب الجنرال هكس باشا ويدعوه للتسليم فكتب له خطاباً بليغاً كعادته تجلت فيه قوة شخصيته كزعيم وطني واستنسخ منه 1500 نسخة لتوزع على طول خط سير الحملة ، فاستشاط هكس غضباً ورد على المهدي يهدده ويتوعده ويفخر بنفسه ، ويبدو أنه قصد بذلك رفع معنويات الجند أما المهدي فرمأ أخذ ذلك الرد دليلاً على خوفه وإنهيار معنوياته بخاصة وأن جيش المهدي كان يتمتع بمعنويات عالية ، قال أوهرولدر - وهو شاهد عيان عند خروج جيش المهدي من الأبيض :

((...ساد الصمت بمعسكر الأبيض ونحن نتوقع حدوث الكارثة في أية لحظة ، وأملنا في النصر معقود على القادة الأوربيين والبنادق الجيدة والمدفيعيات ، فقد قيل أن المهدي وعد بمساعدة أربعين ألف ملك من ملائكة الجنة...))⁽⁵⁰⁾

هذا إضافة إلى إنتشار شائعة في أوساط جنود الحملة مفادها أن المهدي سيشعل النيران في غابة شيكان ليموت الجنود إختناقاً⁽⁵¹⁾. ويبدو أن هكس باشا لم يكن واثقاً من تحقيق النصر فحاول تدبير مؤامرة لأغتيال المهدي ودفح لأحد الأشخاص مبلغ عشر آلاف ريال إلا أن ذلك الشخص ذهب ولم يفعل شيئاً⁽⁵²⁾.

وقبل المعركة بثلاثة أيام كان جيش هكس يعاني من الجوع والعطش ومات من رجاله المئات ول يكن ذلك الجيش يمتلك القدرة على الحركة والقتال ، ورأى المهدي أن الوقت قد حان للقضاء على تلك الحملة⁽⁵³⁾. وفي 3 نوفمبر بدأ اقتحام المربع وإنتهت العملية في وقت وجيز ولم ينج من أفراد الحملة إلا القليل .

وصف أحد ضباط الحملة اليوم الرابع من نوفمبر بأنه :

«...كان يوماً سيئاً فمعنوياتنا هابطة ونحن داخل غابة...إنصبت علينا النيران من كل الإتجاهات وبدأ الرجال والجمال والبغال يتساقطون بسرعة الواحد تلو الآخر ، لقد أصاب منا الإرهاق والتعب مدى بعيداً وأصبحنا لا ندرى ما نفعله⁽⁵⁴⁾.

ووصلت حالة الزعر والفوضى إلى أن الضابط لا يستطيع التعرف على جنده ولا الرجل يعرف صاحبه⁽⁵⁵⁾. أما حكومة الخرطوم فقد أصيبت بخيبة أمل وأيقنت أن نفوذها في السودان إنتهى تماماً. فالسودانيون الذين كانوا مترددين في الإنضمام للمهدي توافدوا عليه بعد شيكان في الأبيض وإنتشرت أخبار انتصار المهدي في أوساط العالم العربي والإسلامي وجاءت الوفود من الحجاز وتونس ومراكش والهند للتعرف على دعوته⁽⁵⁶⁾.

وبعد ست سنوات من وفاة المهدي وصف أوهرولدر مكانة المهدي في أوساط السودانيين بعد معركة شيكان قائلاً :

(...لقد استلقت إنتباه الناس واعتقد أغلب السودانيين أنه المهدي حقيقة ، وظن البعض أنه ساحر عظيم وحتى الآن وبعد ست سنوات منذ وفاته ما زال نجاحه المذهل يعزى إلى السحر وحتى أهله الدناقلة مسلمين بأنه ليس المهدي إلا أنهم يقولون أنه كان رجلاً واهباً نفسه للدين وأن الله سبحانه وتعالى وهبه قدرة وحكمة خارقة للعادة⁽⁵⁷⁾.

ومهما يكن من شئ فقد استغل المهدي هذا النجاح المادي والمعنوي فقرر :

1. بث الرسل والرسائل والسرايا إلى بحر الغزال ودارفور وبربر دنقلا وشرق السودان لإخضاع الحاميات المصرية .

2. مخاطبة مشايخ جزيرة سنار وغيرها حاثاً إياهم على التقدم والبدء في محاصرة الخرطوم .

3. الاستعداد للتقدم شرقاً والبدء في عمليات إنهاء الحكم التركي- المصري في البلاد .

ردود الفعل في الخرطوم :

أكد العقيد ستيوارت في تقاريره أن الجيش يعيش ظروفاً صعبة وقد بدأ اليأس يدب في أوساط الجند، كما ذكر أن الضباط والجنود المصريين يعانون من الجهل وعدم التأهيل، وفي أذهان الكثيرين منهم أوهام وخرافات عن قوة المهدي ، وأضاف ستيوارت أن الشعب السوداني يكره

الحكومة ومنحاز إلى المهدي وإذا حاولت الحكومة قمع الثورة فإن ذلك قد يكلفها كل ما تملك من مال ورجال.⁽⁵⁸⁾ والأهم من ذلك تأكيد كرومر على أن مصر لن تقوى على إنهاء تلك الثورة لأن المهدي والثوار يعتمدون في ثورتهم على الدين الإسلامي وكرهية السودانيين للأتراك.⁽⁵⁹⁾ وعلى مستوى القيادة العليا في بريطانيا فإن هزيمة هكس جعلت بريطانيا تعلن صراحة عدم الاحتفاظ بالسودان وضرورة إخلاء الحاميات المصرية مع الإبقاء على الجيش الإنجليزي في القاهرة نظراً لما تدعيه من خطر مهدوي على مصر ، ورفضت رأي مصر القائل بضرورة الإخلاء المرحلي والاحتفاظ بالخرطوم.⁽⁶⁰⁾

فبريطانيا لا تريد وضع الجبل على الغارب لمصر كي تسيطر على السودان بعد إنتهاء دولة المهديّة، في ظل المهددات الفرنسية في القرن الإفريقي ومنابح النيل لذا فقد رفضت إرسال عبدالقادر باشا حلمي رغم شجاعته ومهاراته في القتال وتأهيله وخبرته الإدارية في السودان ، مما جعل العقيد ستيوارت يشيد به. وحين عرض عليه الذهاب إلى السودان اشترط عدم إعلان عمليات الإخلاء وضرورة أن تصحيه قوة عسكرية.⁽⁶¹⁾

اقترحت بريطانيا إرسال الجنرال غردون ، ووافق اللورد كرومر على ذلك رغم عدم معرفته للصيقة بغردون ، وكان متشككاً في كفاءته وإقتناعه بأنه رجل متقلب الأطوار ، وقال كرومر فيما بعد أنه ندم على تلك الموافقة ، وفي 25/يناير/1884م صدرت الأوامر لغردون من الحكومة المصرية بإخلاء الحاميات المصرية والمواطنين المصريين والأجانب من السودان في فترة ثلاثة أشهر وليمكن من أداء مهامه عين حكمداراً على السودان.⁽⁶²⁾

حاول غردون اتباع استراتيجية إعلامية تهدف إلى شق الصف السوداني وإضعاف ثورة المهدي وإعادة الأمن والنظام في السودان في ظل نفوذ بريطاني وذلك عن طريق الأخبار الكاذبة والأغاليط والتصريحات عن طريق الخطابات والإعلانات واللقاءات مع بعض الزعماء ومن ذلك :

1. الاستفادة من أحفاد السلاطين السودانيين الذين كانوا حكاماً قبل الغزو التركي المصري للسودان في 1822م وتوظيف الزبير باشا مديراً لإدارة المدن كالخرطوم وكسلا ودنقلا وغيرها.⁽⁶³⁾ وقصده من ذلك ضرب السودانيين ببعضهم البعض وبالتالي إضعاف الثورة .
2. وفي طريقه للخرطوم أبرق الحسين خليفة العبادي في بربر بأنه سيعزل كل الموظفين الأتراك والمصريين ويستبدلهم بعناصر سودانية كما سيعفي كل الناس من متأخرات الضرائب مع إعفائهم من الضرائب لمدة عامين وتخفيض الضرائب بنسبة 50% ، وإلغاء الأوامر الخاصة بمنع التعامل بالرقيق الموجود في أيدي الناس .
3. أرسل خطاباً إلى المهدي بواسطة الحسين خليفة العبادي ومعه كسوة شرف ، وأفاده في الخطاب بأنه عينه سلطاناً على كردفان.⁽⁶⁴⁾
4. وفي بربر أعلن على بعض زعماء القبائل والشيوخ أنه جاء لإخلاء القوات المصرية وترك السودان لأهله .

لكنه فشل في مسعاه وذلك لعدة أسباب منها :

1. لم يوفق في تقدير الموقف ، وتعامل مع السودان والسودانيين على خلفيات قديمة قبل أن يصل إلى الخرطوم .

2. إعلان الإخلاء كان بمثابة ضوء أخضر للعناصر المحايدة والمتردة للانضمام إلى المهدي وثورته كما أدى إلى اشتعال الثورة في مناطق النيل الأبيض والأزرق⁽⁶⁵⁾. وتكبيد قوات الحكومة خسائر فادحة في شرق السودان وسقطت كثير من المدن في أيدي الثوار الذي ضربوا الحصار على كثير من المدن كسنتكات وطوكر وغيرها ، وربما كان غردون يتوقع حدوث إنشقاق في صفوف الثوار وصراع على السلطة إلا أن ذلك لم يحدث ، كما أن إعلان الإخلاء أكد للسودانيين الذين لم ينضموا للمهدي إن المهدي أقوى من الحكومة ومن عادة الناس دائماً الانضمام للأقوى طوعاً أو كرهاً فإنضموا إلى الثوار ، كما ان القرار رفع معنويات الثوار وإنعكس ذلك على أدائهم بمسارح العمليات .

3. في 27/فبراير/1884 حاول إقناع السودانيين بعدم الانضمام للمهدي ونظراً لعدم جدوى ذلك فقد أطلق شائعة مفادها أن القوات البريطانية في طريقها للخرطوم ، في حين أن تلك القوات لم تتحرك بعد وإنما قصد بهذا الخبر الكاذب شق الصف السوداني والتأثير المعنوي على الثوار. لذا فحتي بعد تحرك الحملة في أكتوبر لم يصدق الناس أنها تحركت فعلاً⁽⁶⁶⁾. وكل العمل الدعائي الذي قصد به غردون شق الصف السوداني كان في صالح المهدي والثوار .

4. كان موقفه حرجاً مما جعله يدخل في مساومة مع المهدي بتعيينه سلطاناً على كردفان ، وهذا ربما أقتع المهدي بمدى ضعف قوات الحكومة وبداية نهايتها ، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع معنويات الثوار وإصرار المهدي على مواصلة القتال ضد جيش الحكومة .

5. فشل غردون أيضاً في التعامل مع رسائل المهدي وكبار القادة الميدانيين وكثيراً ما كان يلجأ إلى الأغاليط كالشتم والسباب والتهديد، مع أن المهدي لم يلجأ لمثل هذا الأسلوب قط بل كان يطلق على غردون «عزيز بريطانيا والخديوية»⁽⁶⁷⁾.

في سبتمبر/1884م وضح أن غردون لم يكن يرغب في إخلاء السودان بل كان هدفه القضاء على المهدي وثورته ربما لتلبية رغبته الشخصية أو رغبة إنجلترا وقد إتضح ذلك من تصريحات اللورد ولسلي وسياسة بريطانية المعلنة بعد مقتل غردون⁽⁶⁸⁾.

ويبدو أن غردون اقتنع بفشله في مهمته فصار يلقي اللائمة على كرومر وغلادستون وغيرهما من أعضاء الحكومة البريطانية الذين تسببوا في عدم تجهيز الحملة في الوقت المناسب حسب رأيه وهذا من اسقاطات غردون ، يخطئ وينسب الأخطاء لغيره ، ونجده يتحسر على قوات الاوان قائلاً :

«...لو أرسل الزبير إلى السودان لكننا هزمننا المهدي دون أية مساعدة خارجية ، وشئ محزن أن يكون المهدي محتضراً ونخلي له الخرطوم فينهض مرة أخرى...»⁽⁶⁹⁾.

وهذه أغلوطة أيضاً لأن الخرطوم هي التي كانت تحتضر، وكان غردون مصراً على عدم التسليم على أمل وصول حملة إنقاذه وإنتظارها يوماً بعد يوم حتى صار في نهاية الأمر يتمنى أن يصل إليه مائة جندي...أو خمسين جندياً... أو جندياً واحداً من أفراد الحملة كبادرة أمل لوصولها.⁽⁷⁰⁾

بعد أن أحكم المهديون حصارهم على الخرطوم وأمدرمان ظهر لغردون مدى عدم رغبة الجنود السودانيون وبعض المصريين في قتال الثوار، وقد أعدم إثنين من كبار قادته لمنعهم الجنود من ضرب الثوار كما صُدم غردون بمقتل واحد من أميز قادته على أيدي الثوار في أم ضبان ويزداد حزنه حين نقل إليه المهدي نبأ مقتل العقيد ستيوارت وأفراد بعثته في منطقة المناصير (18 سبتمبر/1884) فكانت ضربة قاضية حطمت معنوياته.⁽⁷¹⁾

وفي الخرطوم وأمدرمان ساءت أحوال المواطنين ومات بعضهم وتسرب لديهم نبأ سقوط بربر وبدأ التجار في إخفاء الغلال في منازلهم وإنهات المعنويات فحاول غردون القيام بعمل إعلامي دعائي عله يحول اتجاه الرأي العام في الخرطوم ويخلق توازناً نفسياً للجنود والمواطنين فقام بالآتي :

1. أعلن عن تحرك حملات من مصر وإنجلترا عن طريق سواكن، وأن السيد محمد عثمان الميرغني يقود إحدى تلك الحملات، وهي حملات وهمية وأخبار كاذبة.
2. استمر العلماء في الخرطوم في عملهم الدعائي ضد المهدي بالتركيز على أنه ليس المهدي المنتظر⁽⁷²⁾ متجاهلين أنها ثورة زعيم وطني ضد قوى أجنبية، مع أن غردون صرح بأنها ثورة ضد النظام التركي الشركسي.
3. أصدر منشوراً للجنود وسكان الخرطوم والموظفين يذكرهم بما قدمه لهم من حوافز مالية وأنه سيمنحهم مرتب شهر عن كل يوم تتأخر فيه الحملة، وأن جلاله الملكة ضامنة لقوله هذا.
4. في نهاية ديسمبر 1884م اشتد الجوع في الخرطوم وأمدرمان مما جعل غردون يسمح للقادة بالخروج وجلب الأقوات بالقوة من خارج الخرطوم فقد صار الناس يأكلون لحوم الحمير والخيول والبغال.
5. اضطرب أهل الخرطوم وزادت مخاوفهم حين وردت إليهم الأنباء بوصول المهدي فأصدر غردون منشوراً يقرب وصول جيش النجدة وطلب من الناس التحلي بالصبر⁽⁷³⁾.
6. أصدر حكماً بالأعدام على أحمد العوام الذي كان يقف إلى جانب الثورة المهدية وجاهر بتكذيب إدعاءات غردون فيما يتعلق بوصول النجدة، ويقال أنه حرض إحدى النساء على إشعال النار في مخزن الزخيرة.
7. كان لا يتردد في ترقية أي ضابط يقوم بأعمال عدائية ناجحة ضد الثوار⁽⁷⁴⁾.

ومما تقدم نلاحظ أن غردون ومستشاريه لا يعتمدون في حربهم النفسية على مرتكزات أصيلة بل يلجأون إلى الأغاليط والأخبار الكاذبة مما أفقدهم المصداقية أمام أهل الخرطوم بخاصة حين

استسلمت أمدردمان في 5 يناير/1885 بسبب الجوع فبدأوا في الخروج من الخرطوم والتسليم لقوات المهدي ، فأصدر المهدي منشوراً في 6/يناير ينص على حسن معاملة الذين يسلمون أنفسهم رغم استشهاد واحد من أمير قادة المهديّة في 3/يناير الأمير عبدالله ودالنور ، ومما جاء في ذلك المنشور : «...وبعد فإذا فهمتكم هذا أحيائي فألّفوا عبادالله الذين يخرجون مسلمين ومنقادين بأنواع التآليف ، وتلقوهم بالإكرام والتشريف ، ولا تنظروا لمن استشهد من الأنصار فتحنقوا بسبب ذلك على من كان مع الكفار فإن قيامنا هذا لله... ومن استشهد من الأنصار فقد نال عظيم المقدر فيما فعله لوجه الله... فأكرموا الذين يأتون مسلمين وخصوصاً العلماء ومن كانوا أهل وظائف كبار وبالأخص نحو الأمين الضيرر فقد قال صلى الله عليه وسلم : «أكرموا عزيز قوم ذل غني وافترق...والسلام»⁽⁷⁵⁾.

معركة أبو طليح الحاسمة (17/يناير1885م) :

كانت معركة حامية الوطيس ضد طابور الصحراء الذي هو جزء من حملة إنقاذ الجنرال غردون والعقيد ستيوارت. لقد تم تكوين هذه الحملة من خيرة الضباط الإنجليز الذين يتمتعون بالرتب القيادية العالية والخبرة الطويلة في القتال وإدارة المعارك ، إضافة إلى إكتمال القوات من كل الجوانب المادية، وقد حظيت بدعم معنوي لا يقل عن الدعم المادي ، فقائد الحملة كان اللورد وسلي (lord Wolsely) نائب القائد العام للجيش البريطاني ونائبه الجنرال بُر General Buller) الذي يعد من أفضل الضباط الإنجليز أما قائد طابور الصحراء فهو العميد السير هيربرت ستيوارت (sir Herbert Stewart) .

كان عدد ضباط طابور الصحراء 114 ضابطاً ، وعدد ضباط الصف 1678 تم إختيارهم بشكل دقيق، أما قوات الثوار فبلغ عددهم ما بين 8 إلى 10 آلاف مجاهد إضافة إلى بعض القادة والجنود الباشوزق الذين إنضموا إلى جيش المهدي بأسلحتهم⁽⁷⁶⁾ ، وفي ذات الوقت تم استنفار الجعليين شياً وشباباً⁽⁷⁷⁾ وقد كلفت تلك القوة بالتصدي لطابور الصحراء في أبو طليح وعدم تمكينه من التقدم من الممتمة جنوباً إلى الخرطوم .

لا توجد مقارنة بين قوات الحملة الإنجليزية وقوات الثوار من حيث التسليح فلدى جيش المهدي بالمتمة بضع مئات من البنادق الرامتجون وبعض المدافع التي غنمت من جيش الحكومة في المعارك السابقة وكثير من السيوف والرماح والفؤوس والبلط والعصى الطويلة ، ولا توجد مقارنة أيضاً من ناحية الإعاشة والخدمات الطبية إلا أن الثوار كانوا يتمتعون بدرجة عالية من المعنويات ، وثبت من المعارك التي دارت رحاها في وادي أبو طليح والتمتة والقبّة أن السياسة التي اتبعها المهدي في العمل المعنوي منذ فترة سابقة لإعلان الثورة كان لها كبير الأثر في الأداء الرائع للجيش والمليشيات ، وقد شهد بذلك الأعداء ، كما استطاع قادة الثوار إدارة المعارك بشكل جيد بعد أن تم تفصيل واجبات كل قوة .

بالإضافة إلى قيادة الفرسان ، فقد كان على الحاج علي ود سعد - يحكم أنه ابن المنطقة - إدارة الجوانب الأمنية والاستخباراتية والاستطلاع فأرسل الفارس بشير ود سوبك الجعلي برسالة

من المهدي إلى قائد طابور الصحراء في بلاد الشايقية يطلب منه عدم التقدم جنوباً فرفض قائد الطابور ذلك وعاد ود سوبك إلى المتمة وقدم تنويراً عن قوات الإنجليز.⁽⁷⁸⁾ والأخطر من ذلك أن الحاج علي ود سعد جهز فارساً من فرسان الحسانية يدعى أبو لولة ليقوم بعملية تجسس على طابور الصحراء ونجح في مهمته منذ البداية في جقدول حتى إنتهاء المعارك وعاد مع الإنجليز إلى جقدول ولم يمت كما ذكر سلاطين ، فقد ظنه الإنجليز أنه أحد لصوص جبال الحسانية وإتفقوا معه ليعمل كدليل للطابور نظير أجر معلوم ، فكان يرسل الإشارات الضوئية والدخان لعناصر الاستطلاع مما جعل قوات المتمة تتابع سير الحملة⁽⁷⁹⁾.

كما كون الحاج علي قوة من أبناء المنطقة للقيام بعمليات الاستطلاع والتجسس منذ وصول الطابور أبار جقدول⁽⁸⁰⁾. وبعد حوالي 10 أميال من أبار جقدول إتضح لقادة الطابور أن قوات المهدي تتابع تحركاتهم فبدأ القلق يدب في أوساطهم. همس العقيد برني(Burnaby) في إذن أحد الصحفيين المرافقين أنه :

«...لو حدثت لنا أية كارثة ما منا أحد سيرى لندن... إن فرصتنا في اجتياز هذه العقبة بسلام 5 % أو 1 % ...»

قال ذلك وهو في حالة من القلق والإضطراب ولم يكن يمازح⁽⁸¹⁾ ، وفي صباح يوم 16/يناير شاهد الإنجليز الثوار وهم يقيمون عرضاً عسكرياً بالرماح على بعد 1500 أو 2000 ياردة من الطابور ، ربما لإظهار القوة والمعنويات العالية وفي المساء بدأ قناصة الأنصار في الضرب على أفراد الطابور بإستمرار مع قرع النحاسات، مما جعل الإنجليز يوقفون تقدمهم ويمنعون اشعال النار تحسباً لهجوم مهدوي مرتقب. لم يحدث الهجوم إلا أن الثوار استمروا في قرع الطبول مما أحدث قلقاً في أوساط أفراد الطابور حتى شروق الشمس ، قال شارلس ولسون نائب قائد الطابور في صباح يوم 17/ يناير :

«...لم أعرف صوتاً غريباً مضملاً مثل أصوات هذه الطبول ، ومن الصعب جداً تحديد مركز تلك الطبول بخاصة عندما تهب رياح...»⁽⁸²⁾.

ظهر الثوار بشكل مفاجئ وحاولوا إقتحام المربع وتعرضوا لنيران كثيفة فتحولوا من الجانب الأيسر إلى الجانب الأيمن من المربع بشكل سريع وبطريقة أذهلت الضباط الإنجليز ، وأحدثوا حالة من الرعب ، الإرتباك في صفوف الأعداء مما أدى إلى موت بعض الضباط الإنجليز بنيران جنودهم ، بل كاد الثوار أن يفتكوا بقائد الطابور الذي كان على بعد أمتار منهم ونجا بأعجوبة⁽⁸³⁾ وقد أعاققت الجمال الميتة حركة الثوار الذين أظهروا شجاعة فائقة وإقداماً وخفة حركة كما تجلت براعة الأمراء في فن التحرك في الميدان ومشاركتهم في عملية الإقتحام ، فقد شاهد العقيد شارلس ولسون الأمير موسى ود حلو وهو يقتحم المربع ووصف ذلك قائلاً :

«...لقد رأيت رجلاً مسناً ماهراً على ظهر جواده يغرس رايته في قلب المربع وسرعان ما أصيب وسقط دون رايته وإنقلب على ظهره فأتضح لنا أنه موسى أمير عرب دغيم من كردفان ، لقد لاحظته أثناء إقتحام المربع يحمل الراية بيد وكتاب الصلوات (الراتب) باليد الأخرى ، ولم

أرى شيئاً أروع من ذلك. هذا الرجل المسن لم ينحرف جهة اليمين أو اليسار ، ولم يتوقف عن قراءة الصلوات إلا بعد أن غرس رايته في مربعنا ، فإذا كان هنالك شخص عمل عملاً يدخله الجنة فهو هذا الرجل...»⁽⁸⁴⁾. واصل الثوار تقدمهم للمشاركة في عملية الاقتحام وحماية الثوار الذين يقاتلون داخل المربع ولاحظ الإنجليز معنوياتهم العالية وخفة حركتهم واستمرار التكبير المدوي الذي أثر في نفوس أعدائهم الا أنهم تعرضوا لنيران كثيفة أدت إلى حدوث ثغرات في صفوفهم المتراصة.⁽⁸⁵⁾ ورغم ذلك فقد شوهوا وهم يشتبكون مع جنود المربع بالأيدي يقطعون الأطراف ويحطمون الرؤوس بالفؤوس ويعقرون وهم في حالة هياج يهللون ويكبرون.⁽⁸⁶⁾ وقد رأى شهود العيان من الإنجليز كيف أن جرحى الثوار كانوا يقاومون ويرفضون تسليم أسلحتهم بل أطلق بعضهم النار حتي على رجال الاسعاف . وعلى الرغم من أن عدد قتلى الثوار كان كبيراً (ما بين 800-1150) إلا أن ضباط الطابور أصيبوا بالحزن والرعب والذهول حين تأكد لهم أن عدد قتلاهم بلغ 68 وجرحاهم 106 بما فيهم نائب قائد الطابور وثمانية ضباط آخرين ، ووصف ذلك أحد شهود العيان الإنجليز بأنها مجزرة⁽⁸⁷⁾ فهي كارثة بالنسبة للإنجليز، لأنهم ما جاءوا ليموتوا ، ومن جانب آخر فإن خسائر الثوار لا تعني شيئاً مخيفاً بالنظر إلى الواجب المكلفون به ، ومن هنا بدأت بشائر نصرهم ، لأن النصر في هذه الحالة لا يقاس بعدد القتلى بل بمدى نجاحهم في تنفيذ واجبهم الا وهو منع طابور الصحراء من التقدم نحو الخرطوم . لقد هبطت معنويات ضباط وجنود الحملة وصاروا في حالة من الزعر والخوف وما كان قائد الطابور يرغب في معركة جديدة وتقديم مزيد من القتلى والمذابح فحاول تبادي المتمة ولكن في 19/يناير/1885 وهم على بعد 4 أميال من المتمة شاهدت قوات الاستطلاع الثوار وسمعوا قرع الطبول والتكبير والتهليل فتحدد خوفهم. فقد وصلت سرية النور عنقرة التي قوامها 1000 مقاتل مسلحين بالأسلحة النارية ، وتقدمت على الفور لمواجهة طابور الصحراء خارج مدينة المتمة تدعمها قوات من المتمة حيث بلغ عدد كل القوات حوالي 9 أو 10 ألف مقاتل⁽⁸⁸⁾ .

قال الكونت قليخن:

«...كنا نتمنى أن نصل النيل دون أن يرانا أحد لرتوي بالماء ونرتاح قليلاً قبل أن يهاجمنا العدو لكن خابت آمالنا...»⁽⁸⁹⁾ .

بدأت الاشتباكات بمحاولة الثوار قتل أكبر عدد من الجمال وأصيب قائد الطابور العميد استيوارت إصابة خطيرة في أعلى الفخذ وأسفل السلسلة الفقرية في العاشرة صباحاً وتولى القيادة السير شارلس ولسون كما قتل وجرح بعض الصحفيين ، اضافة إلى جرح 8 ضباط و90 جندياً وأعداد كبيرة من الجمال وصار القادة والأفراد في حيرة من أمرهم فهم يعانون الجوع والعطش ويواجهون خطر النيران الكثيفة. لا يستطيعون التقهقر لأن فيه نهايتهم ، ولن يستطيعوا الحصول على الماء الا بعد معارك ضارية غير مضمونة النتائج قال أحد الصحفيين المرافقين لطابورالصحراء أنهم إذا دخلوا في معارك جديدة لن تكون من أجل تحقيق نصر بل من أجل البقاء على قيد الحياة . إلا أن السير شارلس ولسون كام مصراً على التقدم نحو المتمة لاعتبارات سياسية وحاول ذلك فصدته نيران المتمة فأنهزم إلى القبة جنوب المتمة وكان لذلك آثار سياسية ومعنوية مدمرة

باعتراف ولسون نفسه .⁽⁹⁰⁾ وفي صباح ذات اليوم (21 يناير) وصلت البواخر التي أرسلها غردون من الخرطوم وقصفت المتمة بالمدافع ، وكان الجند القادمون من الخرطوم يتدفقون حماساً إلا أن ولسون أخبرهم بأنه لا ينوي مهاجمة المتمة أما القائد الجريح فقد قال حين سمع بوصول الواپورات:

«...الحمد لله لقد انتهت مهمتي...»⁽⁹¹⁾

كل ذلك يعبر عن الهزيمة النفسية النكراء وحالة الإحباط التي شملت كل أفراد الحملة الذين صاروا ينامون خارج الزريبة في القبة خوفاً من نيران الثوار في المتمة ومن جانب آخر نلاحظ الأداء الجيد للثوار في كل المعارك والإصرار على تحقيق الهدف المنشود ألا وهو تعطيل سير طاבור الصحراء ، ونلاحظ إنضباط الثوار وإهتمامهم بالزي العسكري الكامل في أبو طليح والمتمة ، وقد لاحظ ذلك شهود العيان من رجال طاבור الصحراء وذكروه بتفصيل .

لقد تسلم اللورد ولسون رسالة من الجنرال غردون مفادها «أن الخرطوم تمام ويمكنها الصمود لمدة عام» فافتتح قادة الطاבור بأن الرسالة ليست لهم وإنما هي خدعة مصممة للأعداء لكن هذا التصريح لم يؤثر في موقف الثوار بل كان له آثار سلبية على طاבור الصحراء لأنهم في آخر ديسمبر علموا أن لدى غردون مؤن لا تكفيه لأكثر من أربعين يوماً⁽⁹²⁾ فهذا التصريح لا يخرج عن طريقة غردون في استخدام الأغاليط في عمله الدعائي ليبرر موقفه المتعنت .

مهما يكن من أمر فقد تسربت أخبار عن معركة أبو طليح بواسطة بعض الثوار الذين حضروا من المتمة بعد مشاركتهم في تلك المعركة وحاول الفريقان في أم درمان والخرطوم استثمار تلك الأخبار على ما فيها من عدم دقة وجهل بما يحدث فعلاً لطاבור الصحراء من كارثة فأطلق المهدي 101 دانة مدفعية أبتهاجاً بالنصر وفي ذات الوقت ابتهج غردون بالنصر في أبو طليح ، فعمل المهدي على تحويل إتجاه الرأي العام في الخرطوم لصالح الثورة فأرسل الرسل إلى الخرطوم ليعلنوا على الناس أن الثوار هم الذين انتصروا ولأن الناس لم يعودوا يعرفون غردون فقد إقتنع الكثيرون بهزيمة طاבור الصحراء ، وحتى فرج الله قائد ام درمان بدأ يتشكك في انتصار الطاבור وحاول اقناع غردون بالتسليم لكن غردون رفض ذلك قائلاً أمام مجلسه :

«...لماذا نهدي النصر للمهدي طالما مقاومة يوم واحد ستجعله مهزوماً؟

ثم إلتفت إلى بوردين بك صديقه من تجار الخرطوم قائلاً :

«...ماذا أقول أكثر من ذلك ؟ لم يعد الناس يصدقونني فقد طلبت منهم مرات ومرات أن النجدة آتية إلا أنها لم تأت ، والآن يعتقدون أنني أكذب عليهم...»⁽⁹³⁾ . وحين رأى غردون ما وصل إليه حال المواطنين بدأ بالسماح لبعضهم بمغادرة الخرطوم ، وحين وردت أنباء سقوط طابية العيلفون إزداد حزن الناس وصاروا يبكون من سوء حالهم ورأى غردون ذلك الحزن والبكاء فأجهش هو أيضاً بالبكاء ، وحاول التخفيف عليهم ورفع معنوياتهم لكن بدأت حالة اليأس واضحة على وجهه وصار يتحدث بنغمة غير معهودة وغيب نفسه عن أحد الإجتماعات كيلا يؤلم المجتمععين وفي 19 يناير خرج السنجك عمر ابراهيم ومعه رائد باشبوزق بقواتهم ونقلوا إلى جيش المهدي أحوال الخرطوم البائسة⁽⁹⁴⁾ .

أما المهدي فلم تصله تقارير رسمية من قادة أبوتليح ويبدو أن الذين وصلوا أمدرمان لم يتأكدوا من حقيقة الموقف وهالهم عدد الشهداء في المعركة فاعتقدوا أنهم هزموا في تلك المعركة وقد إضطرب المهدي وبعض قادته ومستشاروه ، وصار البعض يضرب على نغمة إنهاء الحصار والإنسحاب إلى كردفان ، لكن في الاجتماع وأمام مجلس الخلفاء وقف محمد ودنوباوي من بني جرار وأقترح إقتحام الخرطوم بعد أن ضرب لهم الأمثال ، ووافق الجميع على ذلك⁽⁹⁵⁾ .
لم يكن المهدي حريصاً على إراقه دماء ، وحاول إقناع غردون بالتسليم قائلاً في آخر خطاب لغردون :

«...إذا رغبت في الإنضمام إلنا فيكون ذلك مبارك لك وإذا رغبت في العودة إلى بلدك فنحن سنعيدكم دون مقابل...»⁽⁹⁶⁾ .

أمر المهدي القادة والأمراء بتنفيذ عملية الاقتحام في تمام الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم الأحد 26/يناير/1885م لم يجدوا مقاومة تذكر نظراً للجوع والمرض وهبوط المعنويات فلم يستغرق الاستيلاء على المدينة أكثر من نصف ساعة ، وكان المهدي قد أوصى بعدم التعرض لغردون وتركه على قيد الحياة⁽⁹⁷⁾ إلا أن المجاهدين بقيادة محمد ود نوباوي نسو ذلك فقتل وأرسل رأسه إلى المهدي الذي لم يصدق أن الثوار نسوا توجيهاته .

أما جيش الصحراء فبدأت قيادته التحرك بإتجاه الخرطوم في 24/يناير وفي يوم 1/27 سمع اللورد ولسون أحد المواطنين ينادي ويهتف قائلاً أن الخرطوم سقطت وأن الجنرال غردون قتل ، وفي يوم 28/ سمع ذات الأخبار والنداءات في الحلفاية فرجع إلى القبة بعد أن تعرض لقصف مدفعي من طابية أم درمان قبالة توتي⁽⁹⁸⁾ وكان المهدي قد أرسل عبدالرحمن النجومي على رأس سرية إلى المنتمة في 8/فبراير لطرد الإنجليز من القبة لكن لم يكن يعرف ما آل إليه حال جيش الصحراء ولم تصله تقارير مفصلة عن سير العمليات فقد فقد جيش الصحراء كل قدراته المادية والمعنوية ولم يعد قادراً على فعل شئ. قتل نائب القائد وجرح القائد جرحاً مميتاً أخرجه من المعركة وقتل كثير من الضباط والجنود ومئات الجمال وهي أهم وسيلة للنقل وتم تحرير الخرطوم وقتل غردون ، وكان لكل ذلك آثاره المعنوية المدمرة للإنجليز سواء كان ذلك على المستوى المحلي في حملة الإنقاذ أو على المستوى الحكومي البريطاني من الناحية السياسية والعسكرية والاعتبارية ، فتغيرت سياستها وتم ابراق الجنرال ولسلي :

«...إن غاية الحكومة الآن سحق المهدي وإخماد ثورته...»⁽⁹⁹⁾

أغلب الظن ان هذا القرار الخطير غير المدروس ربما قصد به غسل الهزائم المتكررة وفشل حملة الإنقاذ في مهمتها مع الخسائر الفادحة في الأرواح ، الأمر الذي أدخل حكومة غلادستون في حرج شديد وجعلها تسعى لخلق توازن بتحقيق نصر ما في أي بقعة في السودان. لذا فإن تحرك الحملة النيلية في شمال السودان وضرب الثوار في جبل كريكمان والحملة الانتقامية ضد المناصر ما هو الا محاولة لتحقيق ذلك التوازن النفسي المختل للقوات الإنجليزية المنحدرة في المتمة، وتبييض وجه حكومة غلادستون أما الرأي العام البريطاني فلم يجد تبريراً لتأخير حملة الإنقاذ وتلكؤ

طابور الصحراء وإضاعته الزمن في القبة ومهما يكن من أمر فقد كان على ولسلي تنفيذ تلك السياسة فأرسل الجنرال بُلر لقيادة جيش الصحراء وإقناع السودانيين بالوقوف إلى جانب لحكومة ، وكان ذلك ضرباً من المستحيل فمعنويات الثوار كانت في القمة بوجود سرية النور عنقرة وورود الأبناء بسقوط الخرطوم فحاول في 11/فبراير تهديد الثوار في المتمة دون جدوى ، وفي اليوم التالي كتب إلى ولسلي بأنه سينسحب إلى أبو طليح. لذا فحين جاءه الرد بسحق المتمة والتقدم شمالاً لم ينفذ تلك التوجيهات بل واصل إنسحابه إلى أبو طليح في 13/فبراير وفي 16/فبراير وصلت قوات ود النجومي المتمة وبدأت في ملاحقة جيش الصحراء المنسحب وأحدثوا خسائر في صفوفه بلغت 4 ضباط و3 جنود قتلى و23 جندياً جرحى وحتى ولسلي نفسه أوقف تقدمه نحو أبو حمد. وعاد إلى كورتي إلا أنه كان مصراً على إرجاع الخرطوم ، ربما لغسل الهزيمة النفسية النكراء والخسائر المادية في الأرواح والعتاد ، وفشل الحملة في تحقيق هدفها ، وما ترتب على ذلك من آثار معنوية مدمرة على كل المستويات في بريطانيا ، إلا أن مجلس النواب البريطاني قرر في 21/أبريل/1885م عدم استرجاع الخرطوم .

آخر هزيمة معنوية للإنجيز قبل إنسحابهم لمصر أنهم قبضوا على بعض أقارب المهدي في دنقلا وطلبوا منهم إقناع قائد الثورة بإطلاق سراح الأوربيين الذين بطرفه في عملية أشبه بتبادل الأسرى ، إلا أن المهدي رفض ذلك على أساس أن الذين بطرفه من الأجانب قد دخلوا الإسلام وصاروا أكرم عنده من أقاربه الذين بطرفهم ، لأنهم لم يهاجروا إليه ، وهو لا يقبل إرجاع مسلمين إلى أرض الكفر .

المهم هنا أن المهدي لم يتخذ قراراً فردياً - كعادته - جمع الأنصار في المسجد وشاورهم في الأمر وتلا عليهم رده المقترح ووافق المجتمعون على ذلك الرد وقد اقتنع الإنجليز بقرار المهدي وأعادوا إليه أهله عزيزين مكرمين .⁽¹⁰⁰⁾

توفي المهدي في 22/يونيو/1885م بعد أن طوى صفحة الوجود التركي - الشركسي في السودان ، ووضع الأسس لدولة عظيمة اكتسبت شهرة ونالت رضا العالم الإسلامي منذ أيامها الأولى .

الخاتمة:

مما لا شك فيه أن العمل المعنوي بكل أشكاله ووسائله مهم للغاية في كل المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية وكل ما يخص الناس ومعنوياتهم . ويتميز العمل المعنوي بالاستمرارية في السلم والحرب دوماً انقطاع . وقد نجح محمد أحمد المهدي في استغلال الجوانب المعنوية في ثورته وخطط لذلك منذ البداية .

ومحمد أحمد المهدي رجل حباه الله سبحانه وتعالى بصفات حميدة ومواهب في فن القيادة مما جعل معاصريه ومن كتبوا عنه يصفونه بأنه كان شخصية كارزمية يمتلك القدرة على التأثير في نفوس الناس واجتذابهم . وصفه شهود عيان من الأجانب بأنه كان خطيباً بارعاً جهوري الصوت يحرك بخطبه مشاعر آلاف الناس ، ولا تفارق وجهه الإبتسامة . كان يتمتع بذكاء وقاد ومظهر أخاذ ووضوح رؤية .

واجه المهدي عداءً سافراً من شيخه محمد شريف نور الدايم الذي وقف إلى جانب الحكومة ضده، إلا إنه وجد التأييد والمساندة من شيخه الآخر القرشي ود الزين . وحاولت الحكومة القضاء علي ثورته بتهديده وتخويله إلا إنها لم نجد سوى صلابة مواقف المهدي والمعنويات العالية لدى أتباعه. وقد حققت ثورة المهدي نجاحاً غير مسبوق واستطاع قائدها تأسيس دولة متكاملة البناء كان للعمل المعنوي والمعنويات فيها الدور الأعظم .

لقد اختار المهدي كردفان كموقع استراتيجي بعيد عن مركز الحكومة وفيه مركز ثقل للعناصر القبلية حيث يتمكن من حشد المجاهدين ، وظهرت استراتيجيته الإعلامية والتخطيط المبكر للعمل المعنوي بتوحيد الزي الرسمي للمجاهدين وتسجيل الزيارات الميدانية لكثير من المدن والقرى ، وبدأ نشاطه التعبوي ولقاءاته الجماهيرية في الأبيض وغيرها منفذا لبرامجه الدعوية والدعائية ، كما عقد لقاءات مع زعماء القبائل ورجال الطرق الصوفية وبث رسائله الخاصة بمهدويته وضرورة الثورة ضد الظلم والجشع والفساد . وكان المهدي في زيارته للمدن والقرى ينفذ برامج ليلية بالطواف في الشوارع وترديد الجلالات. وقد تركزت خطة المهدي الإعلامية في إقناع الناس بأهداف الثورة وتبشيرهم وذلك عن طريق التنوير المستمر وإرسال الرسائل والمنشورات وإبتعاث المناديب إلى القبائل في سائر أنحاء البلاد لدحض الشائعات والدعوة لمبايعته على الجهاد . وقد أصابت فكرته نجاحاً منقطع النظير. فالانتصارات التي حققها المجاهدون لم تتم بقوة السلاح والعتاد الحربي الضئيل فقط، وإنما بالمعنويات العالية الناتجة عن الإيمان بعدالة القضية وتبرير القتال ضد المستعمر مجهودات المهدي في المحافظة على تلك المعنويات مما نتج عنه النصر المؤزر في معارك المهدي ضد قوات الحكومة منذ بداية المواجهة العسكرية . وحتى ما حققته الحكومة من انتصار في بعض المعارك لم يتسبب في خفض معنويات المجاهدين ويثنيهم عن الوصول لأهدافهم الاستراتيجية كتحرير الأبيض والخرطوم مثلاً. فلا توجد مقارنة بين جيش الحكومة المسلح بالأسلحة النارية الخفيفة والثقيلة وبين جيش المهدي الذي كان جل سلاحه السيوف والرماح والعصي وقليل من الأسلحة النارية بخاصة في بداية المواجهة العسكرية . وفي ذات الوقت لا توجد مقارنة بين جيش المهدي الذي كان يتمتع بالمعنويات العالية وجيش الحكومة الذي يتمتع بقوة السلاح دون وجود دوافع وطنية معنوية للقتال وثبت من البحث انخفاض معنويات ذلك الجيش وخوف الضباط والجنود من قوات المهدي في كل المعارك ومحاولات الهروب وعدم بقائهم في مواقعهم في المساء خوفاً من نيران قوات المهدي .في بعض الأحيان، ولم تسجل لنا المصادر حالة هروب واحدة من معسكرات جيش المهدي .

من الواضح أن جيش المهدي كان يتمتع بقيادات فذة شاركت مع المهدي في الوصول إلى أفضل النتائج في مسارح العمليات كإصرار اليأس باشا أم بريبر علي عدم الانسحاب وترك الأبيض وضرورة ضرب الحصار عليها ، وإصرار بعض القادة علي عدم الانسحاب وترك الخرطوم بعد سماع المهدي بوصول طابور الصحراء ونتائج معركة أبو طليح وما أصاب المجاهدين من اضطراب كالأمير ود نوباوي الذي أصر على اقتحام الخرطوم . وتحديث شهود عيان أجنب عن كثير من البطولات

السودانية في المعارك كالحديث عن الأمير موسي ود حلو في معركة أبو طليح ورفض الجرحى تسليم أسلحتهم للقوات الأجنبية . والزي الموحد المميز الذي يرتديه الشهداء في أبو طليح والقبة . ومن الأحداث التي أثرت علي الروح المعنوية إعدام كل من الفكي المنّا أسماعيل شيخ قبيلة الجوامعة وعجيل ود الجنقاوي أحد شيوخ الرزيقات لتمردهم بسبب تقسيم الغنائم وعلى الرغم من رد الفعل العنيف مما نتج عنه رأي عام حول الخليفة عبد الله وتصرفاته إلا أن المهدي عالج القضية بخطاب عام لكل المجاهدين وانتهى الأمر نظراً لحساسية الموقف العمليّ وتطلع الناس لتحقيق الأهداف الاستراتيجية الكبرى .

نستنتج من ذلك :

1. إن العمل المعنوي والمعنويات أمر مهم لا يقل أهمية عن الجوانب المادية . وإن القوة المادية وحدها لا تكفي لتحقيق النصر الحقيقي.
 2. أن قوات الحكومة لم تستند في حربها النفسية المضادة إلا على تكذيب دعوى محمد أحمد المهدي بأنه المهدي المنتظر . وهو امر لم يكن ذا تأثير ولم يأبه به المهدي، وقد تجاهلت الحكومة الدوافع الثورية الوطنية على اعتبار أنها حركة دينية ، في حين أن غردون نفسه صرح بأنها ليست حركة دينية بل هي ثورة أسبابها الفساد والقمع التركي .
 3. إن غردون - رغم تصريحاته تلك لم يكن الرجل المناسب لإخلاء الحاميات المصرية من السودان بطريقة سلمية دبلوماسية تحقن الدماء ، ما أدي ضغائن واحقاد ظهرت آثارها فيما بعد .
 4. أن العمل بنظام الشورى والفريق المتجانس يؤتي ثماراً أكثر من الانفراد باتخاذ القرار .
 5. إن محاولة قمع الثوار بقوة السلاح لا يعني نصراً للحكومات ولا يعني ذلك هزيمة للثوار على المدى البعيد .
- وعلى ذلك يوصي الباحث بضرورة الاهتمام بالعمل المعنوي بكل أشكاله عند التخطيط لأي عمل عسكري أو مدني ، وتوخي الدقة في اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب .

الهوامش:

- (1) المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام ، دار الفكر ، بيروت ، 5002م ، 4 أجزاء ، الجزء الثاني ، ص 252.
- (2) عبد الرحمن محمد علوي ، دراسات في علم النفس الإجتماعي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 47991م ، ص 7.
- (3) عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق حامد أحمد الطاهر ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، 8341هـ- 0102م ، ص 104- 083.
- (4) نفس المصدر ، ص 083. ويجدر بنا أن نذكر هنا أن الصادق المهدي في كتابه القيم (يسألونك عن المهديّة) قد أورد تفصيلاً كاملاً لفكرة المهديّة ورأياً جيداً في أمر المهدي المنتظر .
- (5) Holt, The P.M. The Mahdist State in the Sudan 1881-1898. oxford 1960, p22.
- (6) عبد العزيز حسين الصاوي ، الثورة المهديّة مشروع رؤية جديدة ، الخرطوم 7041هـ- 7891م ، ص 671.
- (7) هاشم العلوي ، حركة المهديّة في المغرب الإسلامي فيما بين 062هـ / 568 - 0501 هـ/ 461م ، في: النقر، عمر عبد الرازق ، دراسات في تاريخ المهديّة ، (البحوث التي قدمت للمؤتمر العالمي لتاريخ المهديّة ، الخرطوم 92/نوفمبر -2/ديسمبر / 1981م ، ص ص 01 - 91.
- (8) ابن ضيف الله ، الطبقات ، تحقيق يوسف فضل حسن ، الطبعة الثانية ، 3791م ، ص 461- 561.
- (9) Charles Eunice A, Sheikh Amadu Ba and jihad in Jolof. (IJAHs) Vol. 8, 1975 No. 3 pp.367- 382.
- (10) Cromer, The Earl of ,Modern Egypt. New york. Pp.367382-. Vol.I, pp352.
- (11) 138-Bergue , Jacques , Egypt Imperialism and Revolution . Lindon, 1972, pp137
- (12) مكي شبيكة ، تاريخ شعوب وادي النيل (مصر والسودان) في القرن التاسع عشر، بيروت ، مايو 5691م / 566.
- (13) محمد إبراهيم أبو سليم ، الحركة الفكرية في المهديّة ، الطبعة الثانية ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ص 6.
- (14) هوجوود ، ويرك، المهديّة في إطار حركات التجديد الإسلاميّة ، في: النقر، عمر عبد الرازق ، المصدر السابق، ص 45-64.
- (15) Oherwalder , F, Ten years Captivity in the Mahdi's Camp, 1882-1892-(London1892) pp1314-13.
- (16) Wingate, FR, Mahdiism and the Egyption Sudan . 2nd Edition, London 1968. Pp12
- (17) نعوم شقير ، المصدر السابق، ص 223-423.
- (18) نفس المصدر ، 423- 523.
- (19) عبد الله صالح سفيان ، المهديّة جدل الإنسان والانتظار ، الطبعة الثانية ، ديسمبر 2102م ، ص 272.

- (20) محمد سعيد القدال ، المصدر السابق، ص 64.
- (21) نعوم شقير ، المصدر السابق، ص 523- 723. محمد إبراهيم أبو سليم ، المصدر السابق ، ص 71-61.
- (22) نعوم شقير ، المصدر السابق، ص 623. محمد إبراهيم أبو سليم ، المصدر السابق، ص 51.
- (23) هنالك فرق ما بين الدعوة والدعاية . ففي حين أن الدعوة عمل يتعلق بالفكر أو الدين والعقيدة أو المعرفة بشكل عام، وتقوم علي حقائق ومبادئ ثابتة ، فإن الدعاية قد لا تركز علي حقائق وثوابت في أغلب الأحيان ، كالدعاية السياسية ودعاية السلع التجارية والإعلان إلي غير ذلك . أنظر: حسين فوزي النجار، الإعلام والدعوة الإسلامية في : الفيصل ، مجلة ثقافية شهرية ، العدد 04 ، شوال /0041هـ ديسمبر 0891م ، ص 71 -12.
- (24) أنظر مثلاً: خطابه إلي كافة المسلمين في السودان . نعوم شقير ، المصدر السابق، ص 35.
- (25) مكي شببكية ، المصدر السابق، ص 476. محمد سعيد القدال ، المصدر السابق، ص 35.
- (26) مكي شببكية ، المصدر السابق، ص 476. محمد سعيد القدال ، المصدر السابق، ص 35.
- (27) Holt, P. M., Op. cit, P45
- (28) محمد سعيد القدال ، المصدر السابق ، ص 86.
- (29) نعوم شقير ، المصدر السابق، ص 633- 733. Holt, P. M., Op. cit, P45-98p.
- (30) أنظر تفصيل ذلك في ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة دار التراث ، الجزء الثاني، ص 452.
- (31) نعوم شقير ، المصدر السابق، ص 733-833. Holt, P. M., Op. cit, P17-Wingate, F.R.op. cit., p. 16.
- (32) نعوم شقير، المصدر السابق، ص 142-242.
- (33) نفس المصدر ، ص 843- 943.
- (34) نفس المصدر ، ص 753- 953 ، 114-214.
- (35) Holt, P. M., Op. cit, P4552-
- (36) حسن أحمد إبراهيم ، محمد علي في السودان ، جامعة الخرطوم (بدون تاريخ) ص 76- 17، 621.
- (37) خصص المهدي الراية الصفراء وهي الراية الثالثة في الترتيب للخليفة محمد بن علي السنوسي في ليبيا ، ربما للإستعانة به في عملياته العسكرية المرتقبة ضد مصر، أو علي الأقل أن إستجابته للمهدي ستدفع من معنويات أنصار المهدي المقاتلين في أرض المعارك . أنظر: نعوم شقير ، المصدر السابق، ص 583- 683.
- (38) نفس المصدر ، ص 873- 973.
- (39) نفس المصدر ، ص 673-773. Holt, P. M., Op. cit, P45.
- (40) نعوم شقير ، المصدر السابق ، ص 683- 673. Oherwalder, op.cit, Ppp.67.
- (41) نعوم شقير ، المصدر السابق ، ص 783-883.
- (42) نفس المصدر ، ص 854- 954.
- (43) نفس المصدر ، ص 193-293.

- (76) نفس المصدر ، ص 594.
- (77) نعوم شقير ، المصدر السابق، ص 02-15 .wingate, F.R. op. cit,
- (78) نعوم شقير، المصدر السابق، ص 225-325.
- (79) 247-Macdonald, Alex.F.R.G.S.Too late for Gordon. London1887, pp.209, 246
- .5-Ancher,Tomas,op.cit.,pp2
- (80) Ibid., p65
- (81) سعيد عبد الرازق حسن وآخرون ، معركة أبو طليح ، 5 يناير0002م، ص 95-06.
- (82) Ancher, tomas.Op. cit., p47.Glechen, Count ,with the Camel Corps up the Nile . London 1888, p.147.
- (83) Nutting , Anthony , op. cit., p294.
- (84) (Macdanald, op.cit.p18.
- (85) Ancher,Tomas,op.cit.,p18
- (86) Macdonald, op.cit.238240-.
- (87) Ancher,Tomas,op.cit.,p12.
- (88) Macdonald, op.cit.p237.
- (89) Glechen , Count, op.cit, p 131132-.
- (90) Ibid , p 136.
- (91) شقير ، المصدر السابق، ص 115-132.Glechen , Count, op.cit, p 131.215-
- (92) Ibid , p 149.
- (93) Ancher,Tomas,op.cit.,p5775-74-.
- (94) Macdonald, op.cit.p 290.
- (95) Ancher,Tomas,op.cit.,p 76.
- (96) Nutting , Anthony , op. cit., p169.
- (97) Ibid , p 167. Wingate, F.R.op cit., 160167-164-.
- (98) Holt, P. M., Op. cit, p 9596-.
- (99) Nutting , Anthony , op. cit., p 304.
- (100) شقير ، المصدر السابق، ص 135.
- (101) نفس المصدر ، ص 145.
- (102) نفس المصدر ، ص 345.
- (103) نفس المصدر ، ص 345.

علماء وداي ومقاومة الإحتلال الفرنسي (دراسة تاريخية تحليلية)

محاضر - جامعة الملك فيصل - تشاد

أ.عبد الواحد محمد داود

المستخلص:

تناولت هذه الدراسة محور (علماء وداي ومقاومة الإحتلال الفرنسي (دراسة تاريخية تحليلية) حيث تناولت الدراسة نبذة مختصرة عن المملكة وعلاقتها الوطيدة مع العلماء، وكذلك المقاومة التي وقعت بين المملكة والمحتل الفرنسي، وكذلك الأشياء التي ساعدت المستعمر للسيطرة على المملكة هو الخلاف الكبير الذي نشب بين الأمراء وتسرع البعض منهم إلى التحالف مع المستعمر بل وأرشدته حتى احتلوا العاصمة أبشة. يهدف هذا البحث إلى تبصر الشعب التشادي للدور الكبير الذي لعبه العلماء في توضيحهم للسلب والنهب من المستعمر الفرنسي لخيرات بلاده وإيضاح أثره الحضاري والثقافي عليهم ومازال المستعمر يتلون بشتى الأسماء من منظمات عون إنساني ومشاريع تنموية ووحدات تهجير ومنظمات كنسية وقوات أمنية لمحاربة الإرهاب لينهب أكثر، وأيضاً إلى محاولة إيقاظ هذا الشعب لمناهضة هذه الأساليب الحديثة للاستعمار الفرنسي لدولته والعمل على الحد منه بقدر المستطاع. وأيضاً تهدف إلى سد ثغرة من ثغرات البحث العلمي المرتبط بتاريخ الاستعمار في تشاد ويكون أيضاً مدخلا مناسباً لدراسات علمية جادة من المجالات التي لم تتناولها هذه الدراسة. تكمن أهمية هذا البحث في أن المقاومة يعتبر ميداناً خصباً لدى الباحثين التشاديين إذ أنه لا يزال ينتظر جهوداً كبيراً من المهتمين بدراسة التاريخ خصوصاً في هذا العصر، فجاءت أهمية هذه الدراسة لإلقاء الضوء على المجتمع التشادي الذي تأثر بالاستعمار الفرنسي أيما تأثير، وهذا التأثير كان كبيراً ويرجع ذلك لعدة أسباب منها طبيعة الاستعمار المباشر من ناحية، وطبيعة اختلاف الشعب التشادي المتمثل في الجنوب الوثنى والشمال المسلم من ناحية أخرى، كل هذا مما جعل المستعمر ينتهز هذه الفرصة لترك بصمته التي يعاني منها الشعب التشادي إلى اليوم، وتم استخدام منهج البحث: المنهج التاريخي لسرد الأحداث وفحصها وتتبعها على حسب التسلسل الزمني وتوصلت الدراسة بأن الإحتلال الفرنسي أراد تذويب المجتمع في ثقافته وعندما فشل رجع للتنكيل والعنف والأساليب القمعية، حتى وصل به الأمر إلى القتل المباشر للعلماء، في عدة أحداث أبرزها حادثة الكبكب وحادثت أبو دقن وغيرها من الأحداث. كما توصلت الدراسة بأن للعلماء مكانة كبيرة وسامية في مملكة دار وداي، وهي الطبقة التي توازي طبقة الحكام، مما أعطاهم ذلك مكانة كبيرة للتقرب إلى العامة والتأثير فيهم، ومكانتهم تلك شجع الآخرين للبحث عن العلم والمعرفة، حتى سافروا إلى خارج البلاد أهمها الأزهر الشريف والأراضي المقدسة، وفي النهاية توصلت هذه الورقة إلى عدة نتائج وتوصيات.

كلمات مفتاحية: جهود، علماء، وداي، أساليب، مقاومة، احتلال فرنسي

Wadi scholars and resistance to the French occupation (analytical historical study)

Abdel Wahit Mahamat Daoud

Abstract:

This study dealt with the axis of (Wadi scholars and resistance to the French occupation (a historical and analytical study)), where the study dealt with a brief overview of the Kingdom and its close relationship with scholars, as well as the resistance that took place between the Kingdom and the French occupier, as well as the things that helped the colonizer to control the Kingdom is the great dispute that erupted Among the princes, some of them rushed to ally with the colonizer and even guided him until they occupied the capital, Abshah. This research aims to enlighten the Chadian people about the great role played by scholars in explaining the plundering and plundering of the French colonialists of their country's resources and its civilizational and cultural impact on them. Attempting to awaken this people to oppose these modern methods of French colonialism in their country and to work to reduce it as much as possible. It also aims to fill a gap in scientific research related to the history of colonialism in Chad, and it is also an appropriate introduction to serious scientific studies in areas not covered by this study. The importance of this research lies in the fact that resistance is considered a fertile field for Chadian researchers, as it is still waiting for great efforts from those interested in studying history, especially in this era. This is due to several reasons, including the nature of direct colonialism on the one hand, and the nature of the difference of the Chadian people represented in the pagan south and the Muslim north on the other hand, all of this made the colonialists seize this opportunity to leave their mark from which the Chadian people suffer to this day, and the research methodology was used: the historical method Lists, examines, and tracks events in chronological order The study concluded that the French occupation wanted to dissolve the society in its culture, and when it failed, it returned to abuse, violence,

and repressive methods, until it reached the direct killing of scholars, in several events, most notably the Kabkab incident and the Abu Daqin incident, and other events. The study also found that scholars have a great and sublime position in the Kingdom of Dar Wadi, which is the class that parallels the class of rulers, which gave them a great position to approach the public and influence them, and their position encouraged others to search for knowledge and knowledge, until they traveled outside the country, the most important of which is Al-Azhar Al-Sharif and the Holy Land In the end, this paper reached several conclusions and recommendations.

Keywords: efforts – scholars - Wadi - methods - resistance - occupation - French

مقدمة :

الاحتلال هو إخضاع جماعة من الناس لحكم أجنبي فيسمى سكان المنطقة المحتلة (بالمستعمرين) وهي ظاهرة تهدف إلى سيطرة دولة قوية على دولة ضعيفة من أجل استغلال خيراتها في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وبالتالي هو نهب وسلب خيرات البلاد فضلاً عن تحطيم كرامة الشعوب وتدمير ثقافته وفرض ثقافته هو.

لم يجد الأوروبيون وعلى رأسهم فرنسا عندما تكالبوا على أفريقيا في القرن التاسع عشر وروداً مفروشة لهم، بل وجدوا الشعب الأفريقي رافضاً لهم الاستسلام فقاومهم أشد مقاومة ومن تلك الدول التي واجهت المستعمر دولة تشاد خاصة مملكة وداي التي وقفت أمام المستعمر بكل بسالة وثبات ويرجع ذلك بسبب تشبعها بالثقافة الدينية العالية التي تتمتع بها والدور الكبير الذي لعبه العلماء في توعية العامة والخاصة بمدى خطورة هؤلاء الغزاة، والعلماء في مملكة وداي يتمتعون باحترام بالغ من قبل الملوك والرعية معاً، ولم يجد المستعمر سبيل سوى الغدر بالعلماء وقتلهم في مذبحه الككبك وغيرها من الحوادث الكثيرة التي شهدتها مملكة وداي من قبل المستعمر الفرنسي ضد علماء مملكة دار وداي .

لذا جاءت هذه الورقة التي تناولت جهود العلماء وأساليبهم في مقاومة المستعمر الفرنسي، وقسمت إلى ثلاثة محاور: تطرق المحور الأول حول المملكة وعلاقتها بالعلماء والمحور الثاني: مقاومة مملكة دار وداي للاحتلال ودور العلماء فيه، أما المحور الثالث تناول الأساليب التي انتهجها العلماء لمواجهة الإحتلال الفرنسي.

مشكلة البحث:

حاول المستعمر الفرنسي علي أن يفرض علي الدول التي استعمرها بسط ثقافته بكل أنواعها سياسياً واجتماعياً وروحياً ، وسعى جاهدا علي ان يحو الحضارات الإفريقية بشتى السبل ،

وهذا ترك آثار سالبة في المجتمع التشادي علي وجه الخصوص لا سيما النخبة المتعلمة فقام العلماء بدور كبير لمحاربة هذا الأمر الخطير ، وهذا ما خلق واقعا يقتضي البحث والدراسة .

أهمية البحث :

عملية المقاومة يعتبر ميدانا خصبا لدى الباحثين التشاديين اذ انه لا يزال ينتظر جهودا كبيرا من كل المهتمين بدراسة التاريخ خصوصا في هذا العصر، فجاءت أهمية هذه الدراسة لإلقاء الضوء علي المجتمع التشادي الذي تأثر بالاستعمار الفرنسي أيما تأثير. وهذا التأثير كان كبيرا ويرجع ذلك لعدة أسباب منها طبيعة الاستعمار المباشر من ناحية ، وطبيعة اختلاف الشعب التشادي المتمثل في الجنوب الوثني والشمال المسلم من ناحية أخرى ، كل هذا مما جعل المستعمر ينتهز هذه الفرصة لترك بصمته التي يعاني منها الشعب التشادي إلي اليوم ، لذا من خلال هذه الدراسة نبحث عن مدى تأثير العلماء في مقاومة الاستعمار الفرنسي من عدة جوانب كالثقافية والاجتماعية الخ

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تبصر الشعب التشادي للدور الكبير الذي لعبه العلماء في توضيحهم للسلب والنهب من المستعمر الفرنسي لخيرات بلاده وإيضاح أثره الحضاري والثقافي عليهم ومازال المستعمر يتلون بشتى الأسماء من منظمات عون إنساني ومشاريع تنمية ووحدات تهجير ومنظمات كنسية وقوات أمنية لمحاربة الإرهاب لينهب أكثر.

كما ترمي هذه الورقة أيضا إلى محاولة إيقاظ هذا الشعب لمناهضة هذه الأساليب الحديثة للاستعمار الفرنسي لدولته والعمل على الحد منه بقدر المستطاع. وأيضا تهدف إلى سد ثغرة من ثغرات البحث العلمي المرتبط بتاريخ الاستعمار في تشاد ويكون أيضا مدخلا مناسباً لدراسات علمية جادة من المجالات التي لم تتناولها هذه الدراسة.

أسباب اختيار الموضوع:

أ / سبب ذاتي الرغبة والميول.

ب / سبب موضوعي: يكمن في إعطاء هؤلاء العلماء حقهم دون بخسها.

منهج البحث: المنهج التاريخي:

سرد الأحداث وفحصها وتتبعها علي حسب التسلسل الزمني

الحدود الزمانية والمكانية والموضوعية:

أ / الحدود الزمانية: فترة الاستعمار الي الاستقلال 1960

ب / الحدود المكانية: دولة تشاد (علماء مملكة وداي)

الحدود الموضوعية: جهود علماء وداي واساليبهم في مقاومة الإحتلال الفرنسي

مملكة وداي وعلاقتها بالعلماء:

ذكرت المخطوطات المحلية وبعض المصادر أن هذه المنطقة التي تعرف بمملكة دار وداي خضعت لحكم عدة جماعات لفترات طويلة لم يحدد تاريخها، أهم أولئك الذين حكموا الكنعانيون الذين تركوا آثار تدل على حكمهم كبقايا الفخار والآبار في الصخور، وأيضا قبائل أبو سنون الذي كان من أشهر ملوكهم (الملك كربي) ثم حكم البرقو.⁽¹⁾

تحول الحكم من برقوا لي التنجر وذكرت بعض الروايات أن التنجر ليسوا بالوثنيين بل كانوا قبلي التمسك بالإسلام، والتنجر ينتمون إلى بني هلال الذين غزو مراكش في القرن الحادي عشر الميلادي وعادوا إلى تونس وتوجهوا نحو نيجيريا واخترقوا برنوا ووداي.⁽²⁾

أسس التنجر مملكتهم في كدمة ومنها استطاعوا أن يسيطروا على جميع المناطق الواقعة بين دار فور ووداي ولكنهم لم يعتنوا كثيرا بنشر الدين الإسلامي.⁽³⁾

ضعفت مملكة التنجر لأن ملوكها في الفترات الأخيرة لم يبسطوا العدل في أوساط الرعية.

ففي أوائل القرن السابع عشر تزوج عبد الكريم بن جامع بنت ملك التنجر وبزواجه من بنت الملك تقلد مناصب قيادية عالية في الدولة وبدأ عبد الكريم يث الدعوة الإسلامية فسرعان ما نشب الخلاف الديني بين عبد الكريم وصهره الملك، فوجد عبد الكريم عطف ومساندة من أخواله المبا وكذلك من الملقا والعناصر العربية، وبوقوف كل هؤلاء معه استطاع أن يستولي على عرش المملكة ويطرده صهره ملك التنجر.⁽⁴⁾

استطاع عبد الكريم أن يؤسس مملكة إسلامية متزامية الأطراف في عام 1615م، فكانت العاصمة في (كدمة) ثم لأسباب أمنية تم نقل العاصمة من كدمة إلى (وارا)⁽⁵⁾ وفي عام 1850م تم نقل العاصمة من وارا إلى أبشة بقيادة السلطان محمد شريف نظراً لبعدها القديمة من المياه الصالحة للشرب، هذه الخطوة قد جعلت من العاصمة الجديدة منطقة مفتوحة كمعبر للقوافل، واستطاعت أن تكسب مركزاً مرموقاً بفضل موقعها الذي يربط بين الشرق والغرب مروراً بوداي إلى كيبابية المركز التجاري لدار فور.

لعبت مملكة وداي دوراً كبيراً في نشر الإسلام واللغة العربية، ومملكة وداي كغيرها من الممالك لها عصرها الذهبي وعصر التدهور والضعف وهي الأخرى تعرضت لعدة غزوات خارجية خاصة من مملكة الفور، وظلت مملكة وداي مستمرة حتى مجيء الغزو الفرنسي الذي استطاع أن يغير الكثير من معالمها.⁽⁷⁾

علاقة مملكة دار وداي مع العلماء:

أسس عبد الكريم بن جامع مملكة وداي على أسس دينية فينا المساجد والخلوي والمدارس القرآنية وجعل العلماء هم الحكام الفعليين على الدولة، وطبق الشريعة وأصبح العلماء هم المنفذين الحقيقيين للشريعة، لأن كل مدينة أو قرية أو فريق لا يتولى زمام أموره إلا رجل دين يشيد عليه الجميع وأمر الإمام مقدم على غيره في كل الأمور المعروضة للبحث خاصة في أمور الدعوة بل للعلماء رأي في تنصيب الحاكم وعزله.⁽⁸⁾

فالعلماء هم الطبقة التي تلي طبقة الحكام مباشرة وربما يفوقوا طبقة الحكام من حيث النفوذ والتفاف الناس حولهم والافتداء بهم، ويدل ذلك على مدى قوة تمكن الإسلام في نفوس الملوك والرعية، بل من مكانة العلماء في مملكة وداي كان لهم الشفاعة وهذه الشفاعة نافذة لدى الملوك خاصة في الأمور التي تتعلق بالسياسة.⁽⁹⁾

إن سلاطين مملكة وداي دائماً لا يسافرون بدون اصطحاب العلماء معهم في الأفراح كالزيارات والدعوات التي تقدم لهم وكذلك الأتراح كالحروب وغيرها وطلبوا من العلماء الدعوة النصر. ونظراً للعلاقة الحميمة بين الملوك والعلماء فقد تقلد العلماء مناصب كبيرة في المملكة عبر تاريخها من أبرز تلك المناصب منصب القاضي الذي له أهمية كبيرة ولا يتقلد منصب القاضي إلا من شهد له بالفقه والورع والنزاهة وكان الملوك يخولون لهم السلطة المطلقة ويعين بجانب القاضي عدة علماء يسمونهم بشاهد القاضي، وهم يوقعون مع القاضي في الوثائق الهامة كوثيقة الصلح التي تتم بين الجماعة المتخاصمة والقبائل المتحاربة.

لا يقتصر دور القاضي في الصلح فقط بل القاضي العام يشرف على عدة أمور كالجانب التعليمي والثقافي، كما يتمثل دوره في توفير السكن للوافدين من طلاب العلم، وتوزيع المواد الغذائية لهم، وهو المسئول عن التعليم في بيوت الحكام.

نجد أن الحكام في مملكة وداي يسعون للتقرب من رجل الدين لتعزيد حكمهم، واستغل العلماء هذه المكانة السامية لنشر الدعوة الإسلامية في كافة ربوع المملكة.

جعلت مملكة وداي العلاقة بين الحاكم والعالم علاقة وطيدة والمكانة شبه متساوية فيما بينهم هذا ما شجع العامة لطلب العلم بل أن البعض منهم شق طريقه للبحث عن العلم في أماكن بعيد شرقاً وغرباً سيراً على الأقدام خاصة في الأزهر الشريف والأراضي المقدسة وبمجرد انتهائهم من تلقي العلوم يعودون إلى أرض الوطن دعاة ومعلمين ينشئون المدارس الدينية لتدريس القرآن والفقه.⁽¹⁰⁾ والمساجد هي الأماكن الأساسية لتلقي العلوم إضافة إلى السائح الذي يحل محل المسجد في القرى الصغيرة، بيد أن المدن والقرى الكبيرة أيضاً لا تخلوا من المسيح، ومن المميزات التي تتميز بها مملكة وداي أن بيوت العلماء هي الأخرى مراكز للتعليم فكل عالم من علماء المنطقة يوجد في بيته أكثر من حلقة علمية في مختلف الأوقات حسب جدول أعما الدارسين.

فالعلاقة بين مملكة وداي والعلماء كانت كبيرة جداً، فكان جل الملوك الذين تعاقبوا علي السلطة لا يقطعون أمراً إلا برأيهم وأرباب الدولة هم من العلماء، كما أن العلماء في وداي يقدمون في الزكاة والهبات على غيرهم وهذه العادة الحميدة لا تزال مستمرة حتى يومنا هذا، بهذه المكانة التي وجدها لعب العلماء دوراً كبيراً في نشر وترسيخ الدين الإسلامي.⁽¹¹⁾

مقاومة مملكة دار وداي للإحتلال الفرنسي ودور العلماء فيه:

تدافعت الدول الأوربية الاستعمارية على القارة الإفريقية لعدة دوافع وأسباب لعل أبرز تلك الدوافع هو الدافع الإستراتيجي، حيث أن الحرب التي قامت بين الدول الأوربية والوضع السياسي التي خلفته دفع تلك الدول أن تفكر في الأماكن الخالية بعيداً عن أنظار الدول الأخرى المنافسة لها، واحتلال مراكز هامة.⁽¹²⁾

من تلك المراكز منطقة نشاد التي لها ميزة خاصة في القارة الأفريقية، لأنها تقع في وسطها مما دفع فرنسا على احتلالها، لأنها منطقة استراتيجية من جميع النواحي خاصة من الناحية العسكرية وجود سلسلة جبال تبستي ومرتفعات وداي وملحقاتها، إضافة إلى ذلك نجد هناك

الصحراء الشاسعة التي مازالت فرنسا تجري فيها تجارب أسلحتها وتدريب جنودها، وحتى اليوم هناك جنود فرنسيين موجودون في تشاد بحجة الاتفاقية الأمنية المبرمة بين البلدين.⁽¹³⁾ كل تلك العوامل التي ذكرت وغيرها مما جعل فرنسا أن تتكالب إلى تشاد لاحتلالها، واعتمدت في استعمارها على الحكم المباشر، وفي بداية هيمنتها تسارعت في القضاء على الممالك التشادية، واستطاعت أن تفصل كل رابط يربط بين الدولة الحديثة والممالك القديمة.⁽¹⁴⁾ تزامن قدوم الغزاة الفرنسيين مع ظهور رابع فضل الله الذي هو الآخر اتجه صوب الأراضي التشادية لينتزع من الأهالي الأراضي وينصب نفسه حاكما عليها.

في منتصف أبريل من عام 1984م قام رابع بهجوم على بعض المناطق التابعة لمملكة وداي، خاصة مناطق دار كوتي ودار رونقا، إضافة إلى مناطق سلامات وأوبانانقي، ومن الغرابة في الأمر أن بعض الكتاب يرى بأن رابع فاتح إسلامي أو ناعي إسلامي، ولكن تلك المواصفات هي بعيدة جدا من الواقع الملموس، لأن رابع عندما هاجم على تلك المناطق فهي تدين بالإسلام وتابعة لمملكة إسلامية، ولم يلتفت رابع لتلك الأشياء بل وأن التاريخ لا يذكر بأن رابع دعي للإسلام ثم غزى، بل كان يحتل المناطق بالقوة دون سابق إنذار.

لذا نستطيع أن نقول رابع ساعد الفرنسيين كثيرا في غزو تشاد لأن الممالك التشادية واجهته واستنفذت قواها قبل ملاقاتها للمستعمر الفرنسي، ويعتبر رابع غازي مثله مثل الفرنسيين يبحث عن مناطق نفوذ له ويوسع من إمبراطوريته للرق لأن في الأصل عمله كان تجارة الرقيق.⁽¹⁵⁾ وعندما استطاع رابع أن يسيطر علي غالب مملكة باقرمي، لم تكن علاقته ودية مع مملكة وداي لأنه كان متعدد الألوان وأن رابع غازياً جريئاً وجد نفسه فجأة يتبوأ مستويات عالية في الحكم.

وفي كل تلك الأجواء المشحونة بالتوتر بدأت القوات الفرنسية تتحرك نحو مملكة وداي واستعمارها ولم تستسلم منطقة وداي وتتفرج للمستعمر، بل سجل التاريخ أنها واجهته بكل ما تملك من قوة وثبات ويرجع ذلك بسبب الوازع الديني الكبير الذي زرعه العلماء في نفوس العامة والخاصة.⁽¹⁶⁾ وضع مملكة وداي لم يكن مستقرا عندما بدأت فرنسا الغزو على وداي لأن هناك صراع كبير بين الأمراء حول الكرسي وفي تلك اللحظة استولى السلطان دود مرة على مقاليد الحكم في وداي.

فبدأ دور العلماء يظهر جليا هنا، وأولى تلك الخطوات التي قام بها السلطان دود مرة هو استشارته للعلماء عندما أرسلت له فرنسا رسالة تطالبه بفتح بلاده لهم ودخولهم إياها بالطرق السلمية فلم يرد السلطان علي الرسالة فدعا لاجتماع مع العلماء في القصر الملكي وانقسم رأي العلماء إلى فريقين:

أ. فريق يرى لابد من محاورة هؤلاء الغزاة، ويعلل هؤلاء نظريتهم بدفع الضرر عن المملكة وأهلها أولا، كما أنه هناك عدم تكافؤ في القوة بين الجانبان، وفي نفس الوقت أن هذه الفرقة ترى بأن قتال النصاري جائز ولكنه لم يكن واجب لعدت أسباب منها أن هناك شتات في الكلمة موجودة في المملكة مثل الخلاف الحاصل بين الأسرة الحاكمة

إضافة إلى الضعف الموجود في قوات المملكة، واستدلوا أيضا بأن التعايش بين النصارى والمسلمين كان موجودا منذ عهد الرسول صل الله عليه وسلم وكذلك في عهد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وهنا صاغوا ثلاثة مبررات رئيسية وهي:

1. /1 الدين الإسلامي يمنح السلطان الحق في عقد اتفاقية مع الجميع لفترة يستطيع فيها جمع قواه حتى يستطيع الدفاع عن نفسه.
2. أن السلطنة انهمكت في الكثير من الحروب الداخلية والخارجية، فهي تحتاج إلى فترة تنظم فيها نفسها.
3. العتاد الحربي الموجود في يد المستعمر لا طاقة لمملكة بها.

ب/ أما الفريق الثاني فله رأي مغاير تماما عن الرأي الأول، فهو يرى أن محاربة الكفار والظالمين شيء محمود في الدين، والآية القرآنية جاء نصها صريحا في هذا المجال، (آية الإذن بالجهاد) الآية 39 من سورة الحج، ويرون أن المعاهدة مع الفرنسيين يعني قبول العيش في مكان واحد مع النصارى وهذا يمس الهوية الإسلامية بصورة أو بأخرى.⁽¹⁷⁾ ومن الملاحظ هنا أن السلطان دود مر ضم رأيه للفريق الثاني وقرر غمار الحرب ضد الإحتلال الفرنسي، فتحركت أول قوة عسكرية بقيادة العقيد محمد بشارة في 29 من مارس 1908م، واشتبكت مع الفرنسيين في منطقة دكوشى بالبطحاء الحالية، ومعه أكثر من 2800 مجاهد، واستمر القتال أكثر من 8 ساعات، وفقد الطرفان عدد من القتلى والجرحى، ولكن الخسائر في جانب قوات وداي كبيرة في هذه المعركة حيث استشهد فيها القائد العام لقوات وداي محمد بشارة. واصلت المملكة رفضها لدخول الفرنسيين لأراضيها فوقعت مواجهة أخرى في منطقة منقلمي الحالية، وعرفت هذه المعركة بعدة أسماء كمعركة بركة فاطمة أو معركة الوادي، هذه المعركة هي من أهم المواجهات المباشرة التي حدثت مع الفرنسيين، حيث ذكر المؤرخون أن قوات وداي تمركزت في تلك المنطقة لمدة ثلاثة أشهر، مما اضطرت القوات الفرنسية التراجع إلى الخلف، ولولا مساعدة أصيل للفرنسيين لصعب عليهم التغلب في هذه المعركة الحامية الوطيس.

ذكر الفرنسيون في مذكراتهم أن رجال مملكة وداي يدافعون بالقوة الإيمانية الكامنة في نفوسهم حيث الواحد منهم يحفر حفرة ويدخل فيها ويحارب لكي لا يولي دبره للكفار وهذا العقيدة القوية رسخها لهم العلماء وهنا يظهر لنا الدور الكبير الذي لعبه العلماء في المقاومة التي حدثت.⁽¹⁸⁾

لم تقف المواجهة بعد، بل تجدد القتال في معركة جديدة عرفت بمعركة بحر السلامات التي وقعت في الحدود الجنوبية للمملكة وفي هذه المعركة فقدت المملكة الكثير من قواتها وقتل قائد الكتيبة أيضا وهو عقيد السلامات مع عدد كبير من أعوانه، ولا تزال مقابرهم مشهورة إلى اليوم.

بعد كل تلك المواجهات التي تمت بين الجانبان، لم يبق سوى المعركة الحاسمة أو الفاصلة وهو سقوط عاصمة المملكة مدينة أبشة

علمت فرنسا علم اليقين أن مثل تلك المواجهات لا يجدي نفعاً أمام أولئك الجهابذة المنتشيين بالدين ويقاثلون بإسم الدين، فانتهجت سبلا جديدة، مثل عملية جمع المعلومات (الجاوسوية) لتجميع المعلومات الحقيقية حول العاصمة والبحث عن نقاط الضعف في القوات المرابطين والمقيمين داخل المدينة، إضافة إلى المعلومات التي جمعتها من عميلها أصيل، كل ذلك من أجل إيجاد ثغرة لتخترق الصف.

فحصلت إلى معلومات مفادها أن الطريق المؤدي إلى مدينة أبشة من الجنوب عن طريق وادي شوك سهل الاختراق، وبالفعل تحركت القوات الفرنسية واتخذت كل الاحتياطات ومرت عبر وادي شوك وتمكنوا من صد الهجوم الذي واجهوه، وواصلوا سيرهم، ومن ثم أصبح الطريق إلى أبشة سهل المثل أمام الفرنسيين، وفرضوا حصاراً على المدينة.⁽¹⁹⁾ وفي صبيحة يوم الثاني من يونيو 1909م بدأ القصف المدفعي في القصر باعتباره مركز القيادة، إضافة القصف العشوائي للمدنيين في كل أنحاء المدينة، مما جعل السلطان يغادر القصر حقناً للدماء وسلامة المدنيين فدخل الفرنسيون القصر ورفعوا العلم الفرنسي.

هكذا سقطت أكبر عاصمة إسلامية في وسط إفريقيا، ويعتبر هذا التاريخ من أسوء الأيام في تشاد وهو يوم حزين ومؤلم، لأن تبعيتها كانت كبيرة جداً.

لم ينته كل شيء بسقوط العاصمة أبشة بل مازال الجهد قائماً من قبل الجميع، حيث لجأ السلطان إلى الجينية فأقام تحالفاً إسلامياً مع السلطان تاج الدين.

فتم فتح جبهات جديدة للقتال، ف وقعت معارك بين الجانبان أهما معركة (بئر طويل) التي وقعت في الرابع من يناير 1910م فهزم فيها الفرنسيون شر هزيمة، فاهتز البرلمان الفرنسي واستنكر المشهد، فعقد جلسة طارئة حول دعم القوات الفرنسية في دار وداي، كما أرسل القائد الفرنسي المقدم (مول) رسالة إلى الحاكم الفرنسي في برازا فيل بأن يأتي هو بنفسه لمشاهدة الموقف. لأن هؤلاء الرجال يقاتلون باندفاع إيماني فائق النظر وكل ذلك يرجع للدور الكبير الذي قاموا به العلماء منذ تأسيس المملكة إلى يومنا هذا، كما وقعت معركة أخرى عرفت بمعركة دروتي لتي فيها المقدم مول حتفه وبهذا النصر الكبير وانشغال المجاهدين بالفرح عاود الفرنسيون الكرة مرة أخرى واستشهد فيها السلطان تاج الدين، فاهتزت الصفوف.

لم تقف فرنسا من مراسلاتها لدود مرة حتى قبل الهدنة مع الفرنسيين وعاد إلى أبشة معززاً مكرماً ووضعوا له بعض الامتيازات، ونظراً لأن الفرنسيين يمتازون بالغدر في كل مكان وزمان غدروا بالسلطان دود مرة وألقوا القبض عليه وتم نفيه إلى فور لامي وبقي هناك حتى أدرسته المنية، كما غدروا بعميلهم أصيل أيضاً وتم القبض عليه والقائه في السجن، ولا غرابة في ذلك أمام الفرنسيين.

من خلال ما سبق يتبين لنا أن المملكة قدمت مقاومة يجب أن تدرس للجميع إذ أنه خلال فترة قصيرة جدا بلغت عدد المعارك التي خاضتها المملكة مع المحتل الفرنسي 22 معركة، وأكثر من 1320 من الأرواح التي راحت من الجانبان، لأن صاحب الحق دائماً يصمد أمام الصعاب،

دفاعاً عن الأرض والدين، وفوق كل ذلك يمكن القول إن القوة الإيمانية والعزيمة الجهادية ضد الكفرة كانت متوفرة لدى المجتمع وأن هذه الروح القوية التي بنها العلماء في نفوس العامة والخاصة أيضاً لها دورها الفعال.⁽²⁰⁾

المبحث الثالث: الأساليب التي انتهجها العلماء لمواجهة الإحتلال الفرنسي:

تعتبر منطقة دار وداي من أكثر المناطق نفوذاً ووعياً وثقافة، وهي الأكثر علاقة بالعالم الإسلامي والعربي في وسط القارة الأفريقية في تلك الفترة، كما أن السلطنة هي الأكثر وعياً وتديناً في منطقة تشاد، لذا صب المستعمر كل مجهوداته منذ اللحظة الأولى إلى اقتطاع جذور الثقافة الإسلامية فيها. فبدنوا بالتدخل المباشر في مفاصل المملكة وقاموا بمباشرة الحكم، ولكن المقاومة المسلحة توقفت وبدأت المقاومة الثقافية والدينية، كما يقول النبي صل الله عليه وسلم (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) رواه مسلم.

حيث ظل رجال الدين يعيون ساهرة نتيجة للوعي الديني والقيمة العلمية الكبيرة التي يمتلكونها تركتهم لم يفرطوا بتفشي أي خطة تقوم بها القوة المحتلة، فوجد الفرنسيون أمامهم جملة من المعوقات، ولم يجدوا سبيلاً لتذليل هذا المعوق إلا بالقضاء على الشخصية الدينية في مملكة وداي، وقطع الصلة بين الماضي والحاضر، وحاولوا إقناع العلماء بصورة خاصة وعامة الناس بصورة عامة لتقبل ما جاءوا به من ثقافة ولغة، ففشلوا فشلاً ذريعاً في تنفيذ هذا الهدف، فلجأ إلى سياسة أخرى وهي سياسة التصفية لكل العلماء الذين لهم أثر كبير في الوسط المجتمعي.⁽²¹⁾ فبدأ المستعمر يستخدم العنف بشتى الأنواع فيروي لنا هذا البروفسور عبد الله محمد آدم (أبو نظيفة) وهو شاهد أعيان) يخرج الجنود الفرنسيين من مدينة أبشة إلى القرى ويجمعوا الأهالي خاصة الرجال بقصد تعديل الشوارع ولكن هدفهم الأساسي ليس الشارع بل هو التعذيب والإهانة، يعطوا الرجل الحفارة التي تحفر الأرض فيحفر الرجل الأرض والجندي الفرنسي يضرب بالسوط في الظهر ويتبعه، يواصل الجندي بالضرب حتى يفقد العامل السيطرة ويقع ومع ذلك لا يتركه بل يقوم بربطه ووضع في الشمس طوال النهار دون أكل أو شرب، ويواصل البروف في شهادته قائلاً يجمع الجنود الفرنسيين الرجال بغرض قطع الأشجار من أجل بناء المرافق الحكومية فيضعوا في كل شجرة عدد من الناس البعض فوق الشجرة والآخر تحتها وكلهم يقطعون في الشجرة في نفس الوقت فتقع الفروع في الناس فيموت البعض وينكسر الآخر والجنود يضحكون، ويمنعوا الأهالي دفن الموتى إلا بعد الانتهاء من عملهم، وبعد قطع الأشجار يحملها أربع أشخاص حتى يوصلوها إلى أبشة من البطيحة وهي تبعد خمسة وأربعين كيلوا متر جنوب المدينة.⁽²²⁾

بعد أن سيطرت فرنسا على مقاليد الأمور في المملكة رأت أن هناك جفوة بينها وبين القاعدة واقتنعت أن هذه الجفوة أحدثتها العلماء، فبدأت تفكر في استدراك الموقف، أولى الخطوات التي قامت بها فكرة الإدماج المجتمع التشادي مع المجتمع الفرنسي، ويترتب على هذه الفكرة طمس الهوية الإسلامية، والسعي إلى قطع الصلة التي تربط العامة مع العلماء، ففشلت هذه المحاولة، ثم لجأت إلى أساليب أخرى مثل إنشاء بعض المراكز التعليمية لمواجهة هذا الفشل، وعملت

علي الاستقطاب الجبري للتعليم، غير أن هذه الإجراءات قوبلت بالرفض التام من قبل المواطنين، فقد اظهروا رفضهم التام لهذه المدارس فاعتبروها حملة تستهدف ثقافتهم الدينية، وظهر الصراع الحقيقي بين الثقافة الإسلامية وثقافة المستعمر الدخيلة، واعتزل المسلمون المدارس الحكومية.⁽²³⁾ لما علم المستعمر بهذا الرفض تجاه المدارس فرض على شيوخ القبائل بإرسال أبنائهم إلى المدارس جبراً، رضي البعض بالأمر الواقع وأدخل أبنائه المدارس، ورفض البعض الآخر وأدخل خدمه بحجة أبنائه، لم يكن سبب الرفض تعلم اللغة الفرنسية أو زيادة علمية، بل يرجع إلى خشية الآباء على أولادهم وبناتهم من الإنحراف، في حال إدخال أبنائهم تلك المدارس الفرنسية المشبعة بالأفكار الكنسية، وضياعهم في أكتاف النصرى واستئصالهم من أهلهم وذويهم.⁽²⁴⁾

ومن الجدير ذكره أن غرض المستعمر في إنشاء تلك المراكز التعليمية لم يكن يرمي وراء ذلك تعليم الناس بما ينفعهم في حياتهم الحالية والمستقبلية بل كان القصد هو تأهيل أعداد من الموظفين ليتعرفوا على القراءة والكتابة لخدمة المستعمر فقط، وكذلك تغيير مبادئهم الإسلامية فقد كان تاريخ فرنسا هو الذي يدرس في المدارس ودائماً ما يركزون على العادات والتقاليد والبطولات الفرنسية وتمجيدها، وإهمال كل مظاهر وثقافة الشعب المحلية.⁽²⁵⁾

ركز العلماء في توسيع المؤسسات التعليمية في المساجد والخلاوي لتزويد الناس بالدين حتى لا يستطيع المستعمر أن يغير من معتقداتهم، ولكن المستعمر الفرنسي لم يكن مكتوف الأيدي، فعمل على تذويب المؤسسات وإخماد جذورها، وهنا نستشهد بشاهد أحد رجال الاحتلال الذي يدعى (ريبو) (إذا تركنا أهل البلاد يستعملون العربية فإنهم يصيرون متمسكين بالإسلام وما معنى الإسلام: معناه إيقاف تقدمنا والوقوف في وجه هدفنا).⁽²⁶⁾ وذكر السيد (هاردي) أحد أقطاب الإستعمار الفرنسي بقوله (تعرفون أنتم وإخوانكم المقاومة بالسلاح مدى ضرورتها وأن الإحتلال العسكري قد تم، ونعرف نحن الفرنسيين أن إنتصار السلاح لا يعني النصر الكامل بل القوة تبني الإمبراطوريات ولكنها ليست هي التي تضمن لها الاستمرار، وأن الرؤوس تنحني أمام المدافع في حين تظل القلوب تغذي نار الحقد والرغبة في الانتقام، وهذا يجب إخضاع النفوس بعد أن تم إخضاع الأبدان... وأن هذه المهمة صعبة وتتطلب وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً).⁽²⁷⁾

على الرغم من كل تلك المحاولات والحيل من قبل المستعمر إلا أن المعارضة من قبل العلماء كان واضحة وجلياً، إذ اعتبروا تلك الأساليب ما هي إلا فيروسات يجب مقاومتها، ونظراً لهذا الصراع المحتدم بين العلماء والاحتلال، قام العديد من العلماء بتأسيس مراكز ثقافية مثل المعهد العلمي الإسلامي الذي أسسه الفقيه محمد عيش، وقد رأت فرنسا أن هذا المعهد يشكل خطراً علي وجودها فقامت بمحاربتة، وذلك بطرد الفقيه محمد عيش خارج تشاد كخطوة أولية للقضاء على هذا المعهد، ومن ثم بادروا إلى تأسيس المعهد الفرنسي العربي ليكون مضاداً له، ومن الغرابة في الأمر أن المستعمر الفرنسي أعطى مسؤولية التعليم للكنيسة وهي المستولة عن المناهج رغم كل ذلك جاءت هذه المحاولة أيضاً بالفشل فلجأت إلى أسلوب آخر وهو أسلوب القمع والتنكيل، نستشهد منها علي سبيل المثال لا الحصر.

حادثة أبو دقن:

يروى لنا الشيخ عبد الله إسحاق مهاجر الذي روى له الحادثة عمه الذي حضر المشهد، وقعت الحادثة غرب مدينة أبشة على بعد 50 كيلوا متر تقريباً، وسبب قيام هذه الحادثة هناك روايتين.

تقول الرواية الأولى:

أتى الجنود الفرنسيين لأخذ الميري (وهي الضريبة التي يأخذها المستعمر من السكان) وعند أخذهم الضريبة استفز أحد الجنود بعض السكان فرد واحد منهم هذا الإستفزاز فقام الجندي بضربه وفي أثناء ذلك وقعت قبعة الجندي وبوقوع القبعة اتخذ المستعمر منها ذريعة وحدثت الحادثة.

الرواية الثانية:

تقول جاء الجنود الفرنسيين إلى محل البئر الذي يسقى منه المواطنين مواشيهم فقام أحد الجنود بالتحرش لإحدى الفتيات ولم يرضى زوجها بتلك فتبادلا الضرب مما كانت سببا في هذه الحادثة.

سميت الحادثة بأبو دقن نسبة للقائد الفرنسي الذي أشرف على الحادثة قام بالحادثة وهو ذو الحية كثيفة، فجمع القائد الفرنسي الرجال واخرج ملابسهم وجمعهم في ساحة واحدة وجمع أبقارهم وأمرهم بحراستها ولا يتركوها تنقلت ومنع الأبقار من المياه لمدة يومين، ومعروف بأن الأبقار عندما تعطش لا تصير والجنود الفرنسيين من ورائهم ليطلقوا النار على كل رجل ترك بقرة لتخرج.

لم يكتفي المستعمر بهذا فقط بل واصل في تفننه في التعذيب فجمع الرجال مرة أخرى وربطهم في حبل في شكل دائرة وأوقد النار في وسط الدائرة واشتعالها فيجر هؤلاء أولئك حتى أحرقتهم جميعاً.⁽²⁹⁾

مذبحة الككب:

نظراً للدور الريادي الكبير الذي لعبه العلماء في سلطنة دار وداي الإسلامية وإقناع الجميع بالتمسك الشديد بالدين الإسلامي لما يقارب الأربعة قرون، جعلها تكون منطقة إشعاع حضاري وازدهار ثقافي، كل هذا ترك المستعمر يخشي من الوعي الشعبي الكبير، لذا عندما انتهت المقاومة المسلحة، بدأت المقاومة الثقافية كما أسلفنا، وهي من أخطر المقاومات على الإطلاق، لذا لجأت إلى الإقصاء والتصفية الجسدية التي تتمثل في قتل العلماء، وقادة الفكر بصورة جماعة حتى يخلوا له الجو من أجل تمرير سياسته وبسط سلطته علي العباد والبلاد.⁽²⁹⁾

هذه الحادثة المؤلمة والمحرزنة في تاريخ البلاد عامة ودار وداي على وجه الخصوص، وهذه الأعمال العدوانية البشعة والمروعة جداً.

ذكر المؤرخون عوامل عدة هي كانت سببا لهذه الحادثة، ولكن في حقيقة الأمر أن كل الصياغات التي صاغها المستعمر لارتكاب كل هذه الجريمة عوامل سطحية أو ثانوية جاءت مصادفة

أو تم التخطيط لها مسبقاً، لتكون مبررات أو مصوغات لهذه الجريمة الغير إنسانية، ولكن السبب الحقيقي هو أعمق وأكبر وأقوى من تلك الأسباب، لأنه سبب ديني وثقافي بامتياز.⁽³⁰⁾

صورة مبسطة عن مشهد الحادث:

تم تكليف الملازم (بون) التابع لسلاح المدفعية وهو قائد وحدة القناصة في أبشة، وبجانبه الملازم (بايلي) بقطع رؤوس العلماء وفصلوها عن الأجساد ووضعها أمام القائد العام جيران استفزازا منهم ثم نقلوا الجثث إلى وادي وسط أبشة يسمى أم كامل، ودفنوا بطريقة جماعية دون تجهيزهم أو دفنهم على حسب نص الشرع الإسلامي، ومقابرهم حتى الآن معروفة باسم مقابر الشهداء.⁽³¹⁾ هذا ما تم داخل مدينة أبشة وتذكر الروايات أن اليوم الأول استشهد فيه أكثر 400 عالماً وفقهياً ولم تقف العملية في هذا الحد بل واصلت خارج المدينة وبأمر مباشر من الحاكم العام ففي مدينة بنتن قتل العلماء بنفس الطريقة التي تمت بالككب في البداية تم إستياقهم خارج مدينة بلتن بحجة الذهاب بهم إلى أبشة وتسليمهم للمسئولين هناك، وفي طريقهم تم قتلهم في منطقة (كري) بالتحديد في قرية ورشك، تم ذبحهم بطريقة بشعة.

الجنود الفرنسيين واصلوا سيرهم نحو القرى في المملكة يبحثون عن العلماء والفقهاء لقتلهم، بل وصل بهم الأمر بأن أصدروا الأوامر بقتل كل من يملك إبريق أو كتاب، وهذا ما يؤكد حقيقة الكلام بأن السبب هو ديني ولا علاقة له بطعن الجندي أو قتله أو غير ذلك.⁽³²⁾ لم يحقق الإحتلال الفرنسي كل أهدافه ولكنه حقق جزء منها وهو قتل العلماء، ومن بقي منهم اضطر للجوء إلى الدول المجاورة خاصة السودان ومن بقي منه ظل مختبئاً تجنباً للمخاطر، بل تركت فرنسا حازراً بينها وبين العامة حازراً كبيراً فلجأت إلى استخدام أساليب أخرى وهو جانب التودد للعلماء، ومنحهم بعض الصلاحيات الإدارية لأول مرة منذ إحتلالها للمنطقة، بغية تذويبهم في المجتمع حتى لا يفكروا في الانتقام.⁽³³⁾ ولكنها لم تجد قبولا لدى الكثير من العلماء، والعامة أيضاً وتيقنت فرنسا أن تلك المغريات بائت بالفشل. وبدأت الهجرة إلى السودان تدفق بصورة غير اعتيادية خاصة في إقليم دار فور وكردفان، ونقلوا فيها نظام التعليم القرآني، وأنشؤا فيها الخلاوي القرآنية، فتم تأسيس أكثر من 400 خلوة قرآنية، ومن أولئك المشايخ الذين لهم الدور الكبير في تأسيس الخلاوي، الشيخ أحمد حلفي والشيخ النجيب في نيالا، والشيخ محمد كرسى في النهود، والشيخ عبد الله إكليل في سنار.

لم يكتفي من تبقى من العلماء بالصمت والقبول بالأمر الواقع بل بدنوا في تكتيف النشاط الديني والدعوي، وإقامة حلق الذكر وفتح المراكز التعليمية الكثيرة، وكان للعلماء دور كبير وفاعل في المحافظة على مكتسبات الثقافة الإسلامية، حتى أصبحت مدينة أبشة رائدة للغة العربية في نشاد قديماً وحديثاً، فأصبحت اللغة العربية هي لغة التخاطب والتفاهم في الشارع العام بين كافة القبائل التشادية المختلفة الأجناس سواء كان ذلك في أوساط المتعلمين أو غيرهم.

الخاتمة:

تم بعد توفيق المولى جل في علاه هذه الدراسة التي هي بعنوان (جهود علماء وداي وأساليبهم في مقاومة الاحتلال الفرنسي).

ناقشت هذه الورقة جهود العلماء ودورهم البارز في دحر المحتل الفرنسي، تطرق في بادئ الأمر عن نبذة مختصرة عن المملكة ثم مكانة العلماء مع الحكام وكذلك مناقشة الموضوع الأساسي ألا وهو الدور الكبير الذي لعبه العلماء في مقاومة الاحتلال، واعتمدت الدراسة على المصادر ذات الصلة بالموضوع.

حاولت فرنسا تغيير نمط حياة الشعب في المملكة مما جعل العلماء يقفون ويتصدون لها فردت لهم ذلك بعدة مجازر، وسبب تمسك فرنسا بالمنطقة وتعندها رغم جهود العلماء الجبارة يرجع إلى أهمية الموقع الاستراتيجي الذي يربط مستعمرات فرنسا من الشمال إلى الجنوب، وأيضاً تستطيع أن تتصدى لأي قوة أوروبية تحاول الوصول إلى تلك المناطق الخاضعة لها.

النتائج:

1. منذ دخول الإستعمار كان العلماء هم الطبقة القيادية والرائدة وثبتوا في نشر الدعوة الإسلامية أمام كل الذي حدث.
2. العلماء لم ينادوا بالجهاد مباشرة أو علانية بعد أن سيطر المستعمر على المملكة وإثماً نادوا بنشر الدعوة وتثبيتته في نفوس العامة لتكون كلمة الله هي العليا رغم أنف المستعمر.
3. اتسمت سياسة فرنسا منذ اللحظة الأولى بالعنف والنهب والسلب وعندما أنشئ المستعمر المراكز التعليمية سلم قيادتها للمبشرين المسيحيين، لكي يخلق جيلا يسير وفق ما أراده المستعمر، وفشل في ذلك.
4. إهتمام العلماء بالخلاوي القرآنية وحفظ القرآن الكريم ساعدهم في تحقيق أهدافهم، وهو عدم ترك ثغرة للمستعمر يدخل للشعب عبرها.

التوصيات:

1. ضرورة القيام بمثل هذه الندوات، حتى يتثنى للجميع معرفة الحقيقة المغيبة عندهم.
2. لا بد من إيجاد متحف يتم فيه جمع المخلفات الأثرية خاصة بالمملكة حتى يسهل للباحثين دراسة تاريخ هذه المملكة العريقة.
3. المطالبة باسترجاع الوثائق التي أخذتها فرنسا منذ فترة الاستعمار.
4. الاهتمام بطباعة ونشر المخطوطات والقضايا ذات الصلة بالموضوع، وإجراء المقابلات الشخصية مع الأشخاص المرجعيين الذين عاصروا الأحداث أو الذين عاصروا من عاصروا الأحداث، لكشف بعض الحقائق التاريخية للمقاومة الوطنية.

الهوامش:

- (1) إبراهيم علي عبد الله، الدعوة الإسلامية ودورها في توثيق العلاقات بين مملكتي دار فور ودار وداي الإسلاميين ما بين (1600-1900م) دكتوراه غير منشور، جامعة القرآن الكريم السودان 2001م، ص: 156
- (2) عبد الرحمن عمر الماحي، تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال 1960-2894م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1982م، ص: 13
- (3) الماحي: المرجع نفسه، ص: 18
- (4) بشر على الحارث، التدخلات الأجنبية في تشاد 1885-1982م، دبلوم الملك العالي غير منشور، المدرسة الوطنية للإدارة العمومية، المملكة المغربية 1993م، ص: 28
- (5) مملكة وداي كما رآها الرحالة الألماني غوستاف لاختيغال، مركز المنى ص.ب 456 أنجمينا-تشاد، دار نشر المنى 2005م، ص: 15
- (6) * هناك عدة روايات جاءت حول تسمية وارا فتقول الرواية هذه التسمية مأخوذة من لغة الميا والسبب تسمية المدينة بهذا الاسم هو أحد السكان كان في المنطقة فرأى ضيوف عبد الكريم وأتباعه ذهب إلى أهل القرية وقال لهم (ورا كيلو ورا) بمعنى أنت الجماعة سمع القادمون الكلمة فسألوا عن معناها فأخبروهم بها فاختارها اسما للمنطقة، أما الرواية الثانية جاءت من موقع المنطقة الوعرة فحرفت من وعرة إلى وارا ، والرواية الثالثة تقول أن كلمة وارا تعني (وار) أي عندما أتى عبد الكريم سال رجلاً من أهل المنطقة عن القرية فقال لهم (وار سكي) أي بلهجة أهل المنطقة دوروا وراء الجمل، وأكثر الروايات تميل إلى الرواية الأخيرة. لقاء مع البروفسور عبد الله أبو نظيفة يوم 14 مارس 2016م.
- (7) عثمان علي محمد، لمحات من التاريخ التشادي 18 صفر الخير 1381هـ الموافق 1961/7/31م، ص: 13
- (8) عثمان على محمد، نفس المرجع، ص: 15
- (9) محمد صالح أيوب، الدور الاجتماعي والسياسي الشيخ عبد الحق السنوسي الترجمة في دار وداي - شاد (1853-1917م)، الطبعة الأولى 1360، من وفاة الرسل صل الله عليه وسلم (2001) إفريقيا، ص: 109
- (10) محمد صالح أيوب نفس المرجع، ص: 112
- (11) جوستاف لاختفال، رحلة إلى وداي ودارفور، تعريب سيد ديدان ب.ت، ص: 209
- (12) شوكت محمد عليان، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، دار الرشيد للنشر والتوزيع، ط1، الرياض 1410هـ 1981م، ص: 500
- (13) محمد أحمد مشهور الحداد، حقائق تاريخية من العرب والإسلام في إفريقيا الشرقية، دار الفتح، بيروت - لبنان 1393هـ 1980، ص: 41-42
- (14) أحمد عبد الدائم محمد حسين ، الإقتصاد الإفريقي في كتابات الرحالة الأوربيين في القرن ١٩ ، مجلة قرأت إفريقيا ، العدد يوليو - سبتمبر 2014م، ص: 10

- (15) محمد سعيد القدال، تاريخ السودان الحديث 1820-1955م، الطبعة الثانية، الناشر مركز عبد الكريم ميرغني 2002م، ص: 61-62
- (16) إسماعيل حلمي محروس، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، من الكشوف الجغرافية إلى قيام منظمة الوحدة الإفريقية، ج1، 2004م، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، ص: 292
- (17) محمد صالح أيوب، المرجع السابق، ص: 261
- (18) لقاء مع البروفسور عبدالله محمد آدم أبونظيفة يوم 14 مارس 2016م.
- (19) محمد شرومة أنقاري، المظاهر الحضارية لمملكة وداي الإسلامية، رسالة ماجستير غير منشور، كلية الدعوة الإسلامية طرابلس 2008م، ص: 240
- (20) عبد الوهاب الكيالي الموسوعة السياسية، الموسوعة العربية للدراسات والنشر، ج1، دار الخدي للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان 1994م، ص: 179
- (21) الطيب علي عوام، الجلابة وأثرهم في المجتمع التشادي في العصر الحديث والمعاصر، دكتوراه غير منشور جامعة الملك فيصل تشاد 2009م، ص: 33
- (22) لقاء مع البروفسور عبدالله محمد آدم، سبق ذكره.
- (23) عبد الغني عبد الله خلف الله، مستقبل إفريقيا السياسي تاريخ شعوب القارة الحديث وأوجه التطور المحتملة فيه ط1، 1957م، مصر، ص: 302
- (24) مهدي ساتي صالح، أضرأ من بعض مظاهر الداخل الثقافي في إفريقيا، دراسة إفريقية، مجلة بحوث نصف سنوية، العدد 35 يونيو 2006م مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم - السودان 2006م، ص: 159
- (25) نوال عبد العزيز مهدي راضي، موضوعات في تاريخ أفريقيا الحديث، أمة القاهرة فرع الخرطوم، 1986م، ص: 43
- (26) د. عبدالفتاح ود، صبري سلامة، أعمال المؤتمر الدولي الثاني للغة والثقافة في إفريقيا، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، قسم اللغات، القاهرة 13-14م، فبراير 2008م، ص: 308
- (27) د. عبدالفتاح ود، صبري سلامة، اللغة والثقافة في إفريقيا، مرجع سبق ذكره، ص: 310
- (28) لقاء مع الشيخ عبدالله إسحاق المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية فرع العليم وداي في منزل أخيه طاهر يوم 2017/07/30م، بعد الساعة الرابعة مساءً
- (29) عبد الوهاب الكيالي الموسوعة السياسية، مرجع سابق، ص: 179
- (30) عز الدين مكي إسحاق، مختصر تاريخ سلطنة دار وداي الإسلامية العباسية، منذ عهد السلطان عبد الكريم بن جامع حتى عهد السلطان محمد عراضة الثاني، 1611-2005م، ط1، 2016م، ص: 146
- (31) أحمد بركة الله زايد، الصراع الثقافي آثاره في تشاد، رسالة ماجستير غير منشور، جامعة أم درمان الإسلامية، 2008م، ص: 229
- (32) أحمد بركة الله زايد، الصراع الثقافي آثاره في تشاد، ص: 74
- (33) محمود شاكر، مواطن الشعوب الإسلامية في أفريقيا (6) تشاد، ويكيبيديا، ص: 74

المصادر والمراجع :

المراجع العربية :

- (1) إسماعيل حلمي محروس، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، من الكشوف الجغرافية إلى قيام منظمة الوحدة الإفريقية، ج1، 2004م، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، ص: 292
 - (2) جوستاف لاختفال، رحلة إلى وداي ودارفور، تعريب سيد ديدان ب.ت، ص: 209
 - (3) شوكت محمد عليان، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، دار الرشيد للنشر والتوزيع، ط1، الرياض 1410هـ - 1981م، ص: 500
 - (4) عبد الرحمن عمر الماحي، تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال 1960-2894م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1982م، ص: 13
 - (5) عبد الغني عبد الله خلف الله، مستقبل إفريقيا السياسي تاريخ شعوب القارة الحديث وأوجه التطور المحتملة فيه ط1، 1957م، مصر، ص: 302
 - (6) عبد الوهاب الكيالي الموسوعة السياسية، الموسوعة العربية للدراسات والنشر، ج1، دار الخدي للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان 1994م، ص: 179
 - (7) محمد أحمد مشهور الحداد، حقائق تاريخية من العرب والإسلام في إفريقيا الشرقية، دار الفتح، بيروت - لبنان 1393هـ - 1980، ص: 41-42
 - (8) محمد سعيد القدال، تاريخ السودان الحديث 1820-1955م، الطبعة الثانية، الناشر مركز عبد الكريم ميرغني 2002م، ص: 61-62
 - (9) محمد صالح أيوب، الدور الاجتماعي والسياسي الشيخ عبد الحق السنوسي الترجمة في دار وداي - شاد (1853-1917م)، الطبعة الأولى 1360، من وفاة الرسل صل الله عليه وسلم (2001) إفرنجي، ص: 109
 - (10) مملكة وداي كما رآها الرحالة الألماني غوستاف لاختيغال، مركز المنى ص.ب 456 أنجمينا-تشاد، دار نشر المنى 2005م، ص: 15
 - (11) نوال عبد العزيز مهدي راضي، موضوعات في تاريخ أفريقيا الحديث، أمة القاهرة فرع الخرطوم، 1986م، ص: 43
- الرسائل الجامعية :
- (12) إبراهيم علي عبد الله، الدعوة الإسلامية ودورها في توثيق العلاقات بين مملكتي دار فور ودار وداي الإسلاميتين ما بين (1600-1900م) دكتوراه غير منشور، جامعة القرآن الكريم السودان 2001م، ص: 156
 - (13) أحمد بركة الله زايد، الصراع الثقافي آثاره في تشاد، رسالة ماجستير غير منشور، جامعة أم درمان الإسلامية، 2008م، ص: 229
 - (14) بشر على الحارث، التدخلات الأجنبية في تشاد 1885-1982م، دبلوم الملك العالي غير منشور، المدرسة الوطنية للإدارة العمومية، المملكة المغربية 1993م، ص: 28

(15) الطيب علي عوام، الجلابة وأثرهم في المجتمع التشادي في العصر الحديث والمعاصر، دكتوراه غير منشور جامعة الملك فيصل تشاد 2009م، ص: 33

(16) محمد شرومة أنقاري، المظاهر الحضارية لمملكة وداي الإسلامية، رسالة ماجستير غير منشور، كلية الدعوة الإسلامية طرابلس 2008م، ص: 240

المجلات والمؤتمرات والمختصرات العلمية:

(17) أحمد عبد الدائم محمد حسين، الإقتصاد الإفريقي في كتابات الرحالة الأوربيين في القرن 19، مجلة قرأت إفريقية، العدد يوليو - سبتمبر 2014م، ص: 10

(18) عبدالفتاح ود، صبري سلامة، أعمال المؤتمر الدولي الثاني للغة والثقافة في إفريقيا، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، قسم اللغات، القاهرة 13-14م، فبراير 2008م، ص: 308

(19) عثمان علي محمد، لمحات من التاريخ التشادي 18 صفر الخير 1381هـ الموافق 1961/7/31م، ص: 13

(20) عز الدين مكي إسحاق، مختصر تاريخ سلطنة دار وداي الإسلامية العباسية، منذ عهد السلطان عبد الكريم بن جامع حتى عهد السلطان محمد عراضة الثاني، 1611-2005م، ط1، 2016م، ص: 146

(21) مهدي ساتي صالح، أضرأ من بعض مظاهر الداخل الثقافي في إفريقيا، دراسة إفريقية، مجلة بحوث نصف سنوية، العدد 35 يونيو 2006م مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم - السودان 2006م، ص: 159

المقابلات:

(22) لقاء مع البروفسور عبدالله محمد آدم أبونظيفة يوم 14 مارس 2016م.

(23) لقاء مع الشيخ عبدالله إسحاق المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية فرع العليم وداي في منزل أخيه طاهر يوم 2017/07/30م، بعد الساعة الرابعة مساءً.

المواقع الالكترونية

(24) محمود شاكر، مواطن الشعوب الإسلامية في أفريقيا (6) تشاد، ويكيبيديا، ص: 74

علاقة كوش المبكرة والقديمة بمصر (3500 – 2050 ق م)

جامعة الخرطوم

د. أحمد إلياس حسين

مستخلص:

يهدف هذا الموضوع إلى تسليط بعض الضوء على علاقة كوش جنوب الشلال الثاني في عصرها المبكر والقديم (3500 – 2050 ق م). ولا تتوفر معلومات عن علاقات كوش بمصر في النصف الأخير من الألف الرابع قبل الميلاد (3500 – 3000 ق م) إذ اقتصرت علاقات مصر بالسودان شمال الشلال الثاني مع مملكة قسطل. ويبدو أن سقوط مملكة قسطل في بداية الألف الثالث قبل الميلاد قد فتح الطريق أمام المصريين في عصر الدولة القديمة (2686 – 2181 ق م) ليمتد تواصلهم جنوب الشلال الثاني. وقد شهدت هذه الفترة حتى عصر الأسرة الخامسة تأسيس العلاقات السودانية المصرية التي تطورت بصورة واضحة في عصر الأسرة السادسة. وكان محور العلاقات المصرية مع السودان هو سعي المصريين المتواصل لتأمين حدودهم الجنوبية والوصول إلى مصادر سلع السودان والوصول إليها وتأمين طرقها، وقد اتسمت تلك العلاقات بالحروب تارة وبالتواصل السلمي تارة أخرى.

Kush's early and ancient relationship with Egypt (3500-2050 BC)

Dr. Ahmed Elias Hussein

Abstract:

This topic aims to shed some light on relations between early and ancient Kush (3500 – 2052 BCE), south of the second Cataract and Egypt. No data about relations between Kush and Egypt in the last half of the third millennium BCE (3500 – 3000 BCE) is available because those early relations took place only north of the second Cataract with the Kingdom of Qustul. It seems that the end of the Qustul Kingdom in the beginning of the third century BCE opened the way for the Ancient Egyptian Kingdom to extend its contacts south of the second Cataract. This period witnessed the establishment of relations between Kush and Egypt where Egyptians focused on protecting their southern borders, trade activities and trade routes. Relations between the two sides is characterized sometimes by wars and some other times by peace.

مقدمة:

مرت العلاقات السودانية المصرية المبكرة بمرحلتين، تمثلت المرحلة الأولى قي الصلات والتبادل التجاري في الفترة الأولى من مرحلة كوش المبكرة (3500 - 3000 ق. م) وقد اقتصرت العلاقات في هذه الفترة بين فترة ما قبل قسطل (المجموعة أ) ومملكة قسطل شمال الشلال الثاني وبين فترة ما قبل عصر الأسر المصرية. ولا تتوفر علاقات بين مصر وكوش في تلك الفترة. ويبدو أن سقوط مملكة قسطل في بداية الألف الثالث قد فتح الطريق أمام المصريين منذ بداية عصر الأسر لامتداد تواصلهم جنوب الشلال الثاني حيث تأسست مملكة كوش. وقد شهدت هذه الفترة تأسيس العلاقات السودانية المصرية حتى عصر الأسرة المصرية الخامسة والتي تطورت بصورة واضحة في عصر الأسرة السادسة. وكان الوصول إلى مصادر ثروات السودان المتنوعة مثل الثروات المعدنية والحيوانية والغابية وغيرها هو محور العلاقات السودانية المصرية منذ بدايتها. ويقول عالم الآثار جيمس بيكي (جيمس بيكي ص 11) واصفاً بداية تلك العلاقات قائلاً: «كان [المصري] يرى بلاد النوبة بلاداً مجهولة لا بد من الولوج فيها والسيطرة عليها واخضاعها بغية الاتصال بالسودان والارتفاع بمنتجاتها وخيراتها» وقد اتسمت تلك العلاقات بالحروب تارة وبالتواصل السلمي تارة أخرى.

العلاقات الحربية:

يبدو أن الطابع الحربي كان هو الغالب على تلك العلاقات. فقد كان الملوك المصريين في عصر الدولتين القديمة والوسطى - كما ذكر توروك - ينظرون للحدود بصورة عامة نظرة مقدسة من خلال المفهوم المقدس لحكم الكون. فكانوا يرون أنه من واجبه حماية الكون المستقر المنتظم (مصر) مقابل الفوضى، وذلك بحريهم أعداء آلهة مصر وحمايتها وتوسع حدودها. (Torok, 2009, p 12) فقد ذكر حرخوف عندما دخل في بلاد يام إنه يقوم بنشر الفرع من المعبود حور في البلاد الأجنبية، وأنه أخضع التمحو حتى عبدوا الآلهة المصرية» (سليم حسن، ب. ت. ص 26، 27)

كما كان تأمين الطرق والوصول إلى مصادر ثروات السودان محور تلك الحروب. وللوصول إلى سلع الجنوب وتأمين طرقها على النيل أسس المصريون منذ عصر الأسرة الأولى (3000-2890 ق م) قلعة الفتين في منطقة أسوان. (Torok 2009 p 55) وقد وثقت المصادر المصرية الحروب المتواصلة بين السودان ومصر منذ عصر الأسرة الأولى.

الحروب حتى عصر الأسرة السادسة:

اتسمت العلاقات السودانية المصرية منذ بدايتها بالحروب المتواصلة. فقد شن الملوك الثلاثة الأوائل من الأسرة الأولى شنوا حملات عسكرية على السودان. فقد خرجت حملة عسكرية على السودان في عهد الملك مينا أول ملوك الأسرة الأولى. (Breasted, p 36) وجاء في لوحة عحا ثاني ملوك الأسرة الأولى إشارة إلى حملته «لضرب تاستي» أي السودان. وواصل الملك جر أعمال سلفه الحربية بالهجوم على السودان. (18-Roy, p 17) ويعلل أحمد فخري لهذه الحروب المبكرة قائلاً: «يدل ذلك على اهتمام ملوك الأسرة الأولى بتأمين حدود مصر الجنوبية وفتحهم المنطقة الواقعة جنوب الشلال الأول من أجل التجارة» (أحمد فخري، ص 19) وخرجت في عصر الأسرة الثانية حملة عسكرية

على السودان كما يظهر فيما تبقى من لوحة النصر - التي عثر عليها مهشمة - للملك خع سخم آخر ملوك الأسرة الثانية (2890 - 2686 ق م) والتي تُبين - كما ذكر سليم حسن - «صورة العدو المقهور على أمره ظاهرة وعلى رأسه العلامة الدالة على لفظة «ستي» وذكر أن عالمي الآثار إمري وكيروان يعتقدان أن حملة خع سخم هذه أدت إلى نهاية الثقافة أ A-Group (سليم حسن، ب. ت. ص 16) ونهاية ثقافة المجموعة أ مقصود بها نهاية مملكة تاستي في قسطل. فحروب المصريين في عصر الأسترين الأولى والثانية كانت تتجه إلى مملكة قسطل جنوب الشلال الثاني.

وورد في آثار الملك سنفرو وأول ملوك الأسرة الرابعة (2613-2494 ق م) خروج حملة عسكرية كبيرة على السودان ذكر فيها أنه دمر بلاد النحسي وأتى بـ 7000 أسير من الرجال والنساء و200 ألف رأس من الماشية الصغيرة والكبيرة. (Hafsaas p 165) سليم حسن، ب. ت. ص 16، 17) ورغم ضخامة أعداد الأسرى من البشر والماشية إلا أنه يشير إلى أن الهجوم قد امتد إلى مناطق مأهولة بالسكان والثروة الحيوانية.

فحملة سنفرو دخلت تا نحسي بعد نهاية مملكة قسطل. فإلى أين اتجهت وإلى أين وصلت؟ تبدو الإجابة مستعصية على هذا السؤال لعدم توفر المعلومات. ويبدو معقولاً أن يكون هدف الحملة مناطق جنوب الشلال الثاني والمناطق المجاور لها. فبعد سقوط مملكة قسطل لم يعد هنالك وجود واضح لكيانات سياسية شمال الشلال الثاني تتجه إليها حملات عسكرية. والمناطق التي شهدت التطور الحضاري في ذلك الوقت - نحو نهاية القرن 27 ق م - هي مناطق جزيرة صاي وكرمة. وقد ورد في آثار الأسر السادسة أن الملك ببي الثاني رابع الملوك في الأسرة أنه أرسل «نيسوخو ليخترق بلاد إرثت» وقد توافق الباحثون على موقع إرثت شمال الشلال الثاني. فمتي ظهرت إرثت، وهل كانت معاصرة لعصر الأسرة الرابعة فتوجهت إليها حملة سنفرو؟

المعلومات المتاحة لا توضح متنشآت إرثت، ولكن يبدو أنها ظهرت بعد حملة سنفرو بوقت طويل. فقد ارتبطت نشأتها بظهور المجموعة الثقافية ج والذي يرجع إلى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد. (Torok, 2009, p53) وحملة سنفرو كانت نحو آخر القرن السابع والعشرين قبل الميلاد. ولذلك فيبدو مقبولاً أن تكون حملة سنفرو قد تخطت الشلال الثاني جنوباً إلى مناطق كثافة سكانية عالية وثروة حيوانية كبيرة في تا نحسي. ويبدو مقبولاً أن تكون حملة سنفرو وصلت منطقة الشلال الثالث حيث نشأت كوش. وإذا سلمنا بهذا الفرضية تكون حملة سنفرو قد حاربت كوش المبكرة، وربما تم اتصال الحملة أيضاً بمنطقة شرق لقيه في الصحراء الحالية غرب منطقة الشلال الثالث حيث تتوفر الثروة الحيوانية. قد شهدت منطقة لقيه نشأة حضارة ما قبل قسطل (المجموعة أ) قبل ظهورها على النيل بين الشلالين الأول والثاني. ويرى لانجان حضارة مملكة قسطل قد تواصل استمرارها في منطقة لقيه بعد نهايتها على النيل وأطلق عليها «مرحلة لقيه» (Lange 2006 a. p113) وهي الفترة التي اشتهرت على النيل باسم «الخلو الآثاري» وفي عصر الأسرة الخامسة تم العثور في منطقة توماس شمال وادي حلفا على آثار تضم تأسماء وألقاب موظفين مثل «المشرف على السفينة» ترجع إلى عصر الملكين ساحورعواسيسي ميايشير إلى احتمال

حدوث أعمال حربية وقعت في هذه المناطق. (سليم حسن، ب. ت. ص 20) كما ورد أن الملك ببي الأول رابع ملوك الأسرة السادسة أرسل حملة «لتخترق بلاد إرثت». وأرسل ببي الثاني آخر ملوك الأسرة السادسة حملة «لتخريب بلاد إرثت» (سليم حسن، ب. ت. ص 26 و30)

فهل كانت أعمال الأسرة الخامسة الحربية موجهة لإرثت؟ قد يبدو ذلك مقبولاً لأن توماس تقع في منطقة إرثت، وليس هنالك ما يمنع أن تكون قد اتجهت إلى منطقة جنوب الشلال الثاني. فالآثار لم توضح أسماء المنطقة أو المناطق التي وصلتها الحملات المصرية بعد عصر الأسرة الثانية بل جاءت الإشارات بصورة عامة، فورد أن حملات الأسترين الأولى والثانية اتجهت إلى تاستي وحملات الأسترين الرابعة والسادسة اتجهت نحو تانحسي. ولم يرد اسم كوش في آثار كل الحملات العسكرية حتى عصر الأسرة السادسة التي شهدت نهاية الدولة المصرية القديمة المعاصرة لكوش القديمة. هل يعني عدم ذكرها أنها لم تكن في ذلك الوقت تعرف باسم كوش؟ أم أنها كانت تعرف باسم كوش ولم تتطرق الحملة أو الحملات التي وصلت تعدت الشلال الثاني جنوباً في عصر الدولة القديمة إلى ذكر أسماء المناطق بل أشارت بصورة عامة إليها تحت اسم تانحسي؟ المعلومات المتوفرة حالياً لا تمكن من الإجابة على مثل هذه الأسئلة.

في عصر الأسرة السادسة (2345 - 2181 ق م) ظهر اسم يام، فقد ذكر حرخوف أن مرنرع رابع ملوك الأسرة السادسة أرسله إلى إقليم يام «ليكتشف الطرق المؤدية إلى هذا الإقليم الأجنبي» (سليم حسن، ب. ت. ص 26) وفي عصر الملك ببي الثاني ذكر حرخوف أنه ذهب إلى بلاد يام عن طريق الواحة. ولم تتفق آراء الباحثين حول موقع يام؟ هل هي على النيل جنوب الشلال الثاني أم في منطقة الشلال الثالث أم جنوب هذه المنطقة؟ أو تقع غرب النيل في مناطق واحة سليمة ولفية ووادي هور؟ (Cooper, 2012) ويبدو أن هذا الرأي الأخير مقبولاً لأن حرخوف في رحلته الأولى ذكر أن الملك مرع أرسله إلى بلاد يام لكشف الطرق المؤدية إليها. وطريق النيل كان معروفاً للمصريين في عصر الأسرة السادسة ولا حاجة لأرسال من يكتشفه، وقد شن المصريون حملاتهم الحربية منذ بداية عصر الأسر. هذا إلى جانب أن نقش جبل عوينات - كما سنتناوله لاحقاً - قد عزز فرضية من قالوا بأن بلاد يام تقع غرب النيل. ويرجع نقش جبل عوينات إلى عصر الأسرة الحادية عشرة (1786 - 2050 ق م) ويوضح الملك منتوحتب الثاني يتلقى الضرائب من منطقتي يام ونخبت. وتوجد في منطقة النقش رسومات صخرية ربما كانت من عمل مواطنين، كما توجد حمير محملة ورجال وكهف مزين في الداخل برسومات وأثار مواقد نيران مما يشير إلى أن المنطقة كانت مستوطنة لوقت طويل. ويوضح النقش أن المصريين كانوا على صلة بالمطقتين - يام ونخبت - عبر المنطقة التي وجد فيها النقش والتي ربما كانت بمثابة منطقة تواصل أو مركز تمويل للبضائع أو منطقة تقاطع طرق مسافات طويلة. (Forster, p 316, 318; Williams, 2013, p 63, 64) ويشير النقش إلأن نشاط الدولة المصرية القديمة في مناطق الصحراء الغربية كان واسعاً، وكانوا يقومون بإنشاء مناطق مراقبة من الواحات داخل الصحراء الغربية حتى واحة الكاب غرب دنقلة. ويرى الباحثون أن فورستر ص 320 وظهور يام في نقش جبل عوينات يشير إلى أن موقعها يكون في منطقة

بعيدة من النيل. (Forsteer, p 299, 316; kuper et. Al). ولذلك فقد خرج حرخوف لاكتشاف طريق جديد إلى بلاد يام. وإلى مناطق غرب النيل للتعرف على الطرق المؤدية إلى بلاد يام. وقد أشار حرخوف إلى يام كمنطقة «بلاد يام» فبلاد يام إذاً كانت منطقة تتطلب كشف الطرق المؤدية إليها، وليس هنالك ما يمنع أن تكون بلاد يام ممتدة على النيل جنوب الشلال الثاني وممتدة غرباً في مناطق واحة سليمة ولقية ووادي هور وأن كوش كانت إحدى مناطق بلاد يام.

العلاقات السلمية:

تمثلت العلاقات السلمية بين السودان ومصر بصورة رئيسة في العلاقات التجارية. ويبدو أن تلك العلاقات بدأت في وقت مبكر بين أصحاب الثقافات المبكرة في كل من السودان ومصر. فقد وحدت أواني مصرية في فترة ما قبل كرمة في جزيرة صاي. (Torok, 2009, p59) كما يوجد الفخار المصري بوضوح في عصر كوش المبكرة. سليم حسن ص 27) كما أسس المصريون في عصر الأسرة الثانية (2890-2686 ق م) مستوطنتان أو مركزان تجاريان إحداهما في كوبان بالقرب من مصب وادي العلاقي والأخرى في بوهين بالقرب من الشلال الثاني (Torok 2009 p 55) وكان المصريون يستغلون محاجر الديوريت في شمال غرب توشي الحالية حيث وجدت آثار أسماء ملوك من الأسرة الرابعة والخامسة في تلك المنطقة، كما وُجِدَت في منطقة توماس شمال وادي حلفا آثار للملكين ساحورع واسي من ملوك أسرة الخامسة. (سليم حسن، ب. ت. ص 20) ويبدو أن العلاقات في هذه الفترة ظلت محدودة إذ لم يرد في الآثار المصرية ما يشير إلى تطورها، بل ورد توقف نشاط بوهين بعد عصر الأسرة الخامسة إذ يرجع آخر أثر مصري في بوهين في عصر الملك إيسيسي الملك قبل الأخير في الأسرة الخامسة ويمثل نهاية السيطرة المصرية عليها حتى بداية الأسرة الثانية عشرة (1991-2050 ق م)

العلاقات في عصر الأسرة السادسة:

شهد النصف الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد (2500 - 2000 ق م) تغيرات وتطورات في السودان ومصر كان لها أثر كبير على العلاقات بين الجانبين. فقد شهدت هذه الفترة في السودان بداية مرحلة كوش القديمة (كرمة القديمة) في القرن 25 ق م، وانتهى في مصر مع بداية هذه الفترة حكم الأسرة الخامسة وبداية عصر الأسرة السادسة في القرن 24 ق م والذي تطورت فيه العلاقات المصرية السودانية. وتوفرت في آثار الأسرة السادسة مزيد من المعلومات عن نشاط المصريين التجاري في السودان. ففقد اهتم ملوك الأسرة السادسة بعلاقاتهم بالسودان وبخاصة في المجال التجاري الذي توسعوا فيه بصورة واضحة، واولوا عنايتهم بطرق التجارة البحرية والبرية. فقد تم تعميق خمس قنوات في الشلال الأول في الجنوب لتيسير إبحار السفن جنوباً، وبُنيت المزيد من سفن النقل من سنط بلاد واوات لنفس الغرض. (سليم حسن، ب. ت. ص 37) كما أولت الأسرة اهتماماً كبيراً بالطرق البرية ومهدوا السبل لازدهارها. فتم تعيين أمراء وقادة على القوافل وتراجعة مثل أري والد حرخوف وحرخوف وسبني ووالده. وخرجت البعثات الكشفية عبر المناطق الصحراوية وبخاصة الصحاري الغربية.

فقد سلك حرخوف في رحلته الثانية طريق الفنتين عبر الصحراء وذكر أنه عاد عن طريق Irtjet و Tererez و Mehker و Irtjet، كما ذكر حرخوف أنه أرسل في رحلته الأولى إلى إقليم يام لنكشف الطرق المؤدية إلى الإقليم، وفي رحلته الثالثة خرج عن طرق الواحة الخارجة إلى بلاد يام. (Cooper, 2012, p 8, 9 وسليم حسن، ب. ت. ص 26)

كما قام سبني في عهد الملكيبى الثاني في عصر الأسرة السادسة برحلة «في قلب مجاهل افريقيا» كما عبر سليم حسن (ب. ت. ص 30). وأضاف سليم «ولم يكن سبني عند قيامه بهذه الرحلة جاهلاً بأحوال البلاد التي قتل فيها والده، بل يظهر أنه كان مدرباً على ارتيادها - وكان لا بد له من ذلك - لأن وظيفة قيادة القوافل على ما نعلم كانت وراثية في حكام هذه المنطقة. وقد أوضحت الآثار ارتياد طريق أبو بلاص في عصر الدولة القديم. ويخرج الطريق من الواحة الداخلة ويتجه نحو الجنوب الغربي إلى الجلف الكبير بالقرب من الحدود الليبية المصرية الحالية. وقد ذهب بعض الباحثين إلى افتراض امتداد الطريق من الجلف الكبير إلى جبل عوينات ثم يتفرع إلى أربع اتجاهات أحدهما يتجه غرباً نحو كرمة والثاني تتجه جنوباً عبر واحة النخيلة والعطرون مخترباً وادي هور إلى وسط دارفور. والثالث ينحدر جنوباً نحو منطقة إنيدي على الحدود الشمالية الشرقية لدولة تشاد، والرابع ينحرف نحو الجنوب الغربي إلى بحيرة تشاد. (خريطة رقم 1) ونهاية الطريق لا زالت موضع البحث، رأى بعضهم الكفرة ورأى آخرون دارفور عبر عوينات وإنيدي. (Kuper et. Al.; Forster, p 309 - 310, 313)

خاتمة :

دخلت منطقة كرمة في العصر الحجري الحديث منذ الألف السادس قبل الميلاد (Usay, 2016) وتواصل تطور المنطقة بقيام حضارة كوش (حضارة كرمة) في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد. وقد تمكن الباحثون من التعرف على مرحلتى حضارة كوش المبكرة والقديمة ودراستها من خلال الآثار التي خلفتها في المنطقة. غير أن التاريخ السياسي لتلك المرحلة المبكرة حتى القرن الثالث قبل الميلاد لم تجد عناية الباحثين نسبة لقلّة المعلومات المتوفرة عنها.

وغني عن البيان أن هذه الفترة تمثل مرحلة الأساس لتاريخ مملكة كوش الأولى مما يتطلب ضرورة المزيد من الاهتمام بها. ويبدو إن الحروب التي شنها المصريون خلال النصف الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد قد لعبت دوراً كبيراً في تطور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع الكرمة لمواجهة الأخطار المصرية والدفاع عن أراضيهم. ففي القرن العشرين قبل الميلاد حيث ظهرت مملكة كرمة - كما عبر توروك - في الآثار المصرية «بجيش ومؤسسات دينية، ونظام برقراطياًطلقت نصوص المملكة المصرية الوسطى على ملوكه ألقاب تدل على الحكام المستقلين» (توروك 1997 ص 99)

كما يلاحظ أن كثيراً من الباحثين تجاوزوا تاريخ كوش في مرحلته الأولى في كرمة (3500 - 1500 ق م) إلى مرحلة كوش الثانية في نبتة في بداية الألف الأخير قبل الميلاد. وقد تناول بعض الباحثين أسباب ذلك التجاوز مثلأسانة عبد الرحمن النور و David O'connor و Emberling Geoff.

يقول ديفيد إمبرلنج: «رغم إن كوش القديمة واحدة من أقدم المجتمعات المعقدة في افريقيا فإنها عادة لا تعد من الدول والامبراطوريات في التصنيف الأثاري المقارن» ويعتبر إمبرلنج أن كوش تمثل «مسار ثقافي متميز يؤدي إلى السلطة السياسية والفوارق الاجتماعية والاقتصاد المعقد». ويناقش إمبرلنج موضوع غياب كوش في الدراسات المقارنة. وكيف أن الباحثين عند تناولهم لكوش لا يستخدمون المصطلح الأركيولوجي للدولة والامبراطورية رغم أنها تمتلك سمات النظامين. ويرآن أغلب الباحثين يستخدمون التصنيف القديم للدولة الابتدائية (primary states) التي لا تتطابق مع طبيعة المجتمع الكرمي، ويوضح أن كوش المبكرة تبدو دولة في عدد من الجوانب وبخاصة في مرحلة كرمة الكلاسيكية. وقد طهرت مملكة كرمة - كما عبر توروك - في الآثار المصرية «بجيش ومؤسسات دينية، ونظام برقراطي أطلقت نصوص المملكة المصرية الوسطى على ملوكه ألفاظ تدل على الحكام المستقلين» (توروك 1997 ص 99) وتظل الفترة السابقة لظهور كوش كمملكة قوية في حاجة إلى البحث والدراسة وبخاصة تاريخها السياسي.

الهوامش:

- (1) أحمد فخري (1960) مصر الفرعونية. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية 1960.
- (2) بيكين: جيمس (1194هـ) الآثار المصرية في وادي النيل ترجمة نور الدين الزراري القاهرة.
- (3) سليم حسن (ب. ت) تاريخ السودان المقارن حتى عصر بيغنخي، القاهرة: شركة نهضة مصر للطباعة والنشر
- (4) سليم حسن (2012) القاهرة: موسوعة تاريخ مصر.
- (5) Breasted, J. H.(1908) A History of Egypt from the earliest times to the Persian Conquest, New York.
- (6) Cooper, Julien (2012) (Reconsidering the Location of Yam” Journal of Latin American Research” Vol. 48, January.Emberling, Geoff (2014) “Pastoral States: toward a Comparative Archaeology of Early Kush” *ORIGINI*, XXXVI.
- (7) Forster, Frank, (2013) “Beyond Dakhla: The Abu Ballas Trail in Libyan Desert (SW Egypt)” in Frank Foster and Heiko Riemer, Desert Road Archaeology in Ancient Egypt and Beyond, Kolen, 297338-.
- (8) kuper, Rudolph et al, (2010) “From Dakhla down to Yam? – New Light on the Abu Ballas Trail” *Journal of Ancient Egyptian Interconnections*, Vol. 2:4, 1-14. http://www.egyptsearch.com/forums/ultimatebb.cgi?ubb=get_topic;f=8;t=006511 posted 09 October, 2009 11:17
- (9) Lange, M. (2006) “The Archaeology of the Laqiya Region (NW-Sudan): Ceramic, Chronology and Culture” in Caniva I and A. Roccati (eds.) *Acta Nubica*,. Proceedings of the 10th International Nubian Studies, Rome 2006, 19 – 14 September 2002, pp 107 – 115.
- (10) Rampersad, Sabrina Roma, (1999) the Origin and Relationships of the Nubian A-Group. A PhD thesis, dept. of near and Middle Eastern Civilizations, University of Toronto.
- (11) Roy, Jane, The Politics of Trade: Egypt and Lower Nubia in the 4th Millennium
- (12) Török, László (2009) Between Two Worlds The Frontier Region between Ancient Nubia and Egypt 3700 BC – AD 500 by LEIDEN • BOSTON
- (13) Usay, Donatlla, (2016) “A Picture of prehistoric Sudan: The Mesolithic and Neolithic periods” in Oxford handbook, online Publication date June.
- (14) William, Bruce, (2013) “Some Geographical and Political Aspects to Relation between Egypt and Nubia in C-Group and Kerma Times” *Journal of Ancient Egyptian Interconnections*” Vol. 6:1, 62-75.

قراءة جديدة لقصيدة فزي وزي (Fuzzy - Wuzzy) للشاعر البريطاني رُوديارد كبلينغ

كلية زمزم الجامعية - السودان

د. أو شيك آدم علي موسى

المستخلص:

تعتبر قصيدة فزي وزي لشاعر الامبراطورية البريطانية الكبير روديار كبلينغ القصيدة الوحيدة عن السودان في الأدب الأنجليزي. استمدت القصيدة عنوانها من كتلة الشعر الكثيف الذي تغطي رأس المحارب البجاوي. كبلينغ كان واحدا من أعمدة الأدب الانجليزي وأول من حاز على جائزة نوبل للآداب في عام 1907 . تحاول هذه الورقة استرجاع هذه القصيدة في ضوء سياقها التاريخي والعسكري. يعتبر القائد عثمان، بشهادة المحللين العسكريين المحليين والأجانب، من أميز القيادات العسكرية لجيش المهدي بشرق السودان ، وكان سببا رئيسيا في صد هجمات الجيوش البريطانية في شرق السودان، بالرغم من عدم تكافؤ الجيشين عدة وعتادا. استطاع عثمان دقنة أن يلحق هزيمة ساحقة بالبريطانيين، وأشدها إيلاما كان كسرهم للمربع البريطاني، مفخرة المؤسسة العسكرية البريطانية. أدرك عثمان دقنة عدم جدوى مواجهة هذه القوة العسكرية الضاربة لذلك لجأ لتكتيك الكر والفر والمباغثة أمرا جنوده بالاختباء خلف الشجيرات والوديان ثم الهجوم المباغثة أثناء اقتراب الجيش الغازي منهم. تسببت هذه الهجمات في احداث ثغرات في المربع البريطاني نفذ من خلالها المحاربون البجاويون إلى داخل المربع مما اربك البريطانيين وجعل القتال وجها لوجه مما أوقع فيهم أعدادا كبيرة بين قتلى وجرحى. هذا الاستبسال والشجاعة جعلت البريطانيين جنودا وقيادة يعجبون بالروحة القتالية الجسورة للمقاتل البجاوي مما دفع الشاعر كبلينغ أن يؤلف فيهم قصيدته المشهورة « فزي وزي». تكونت القصيدة من أربعة أجزاء رئيسية في كل جزء منها إثني عشر مقطعا خلط فيها الجد بالهزل. يستهل الشاعر المقاطع بتمجيد لجيوش صاحبة الجلالة التي صالت وجالت في أصقاع العالم، ثم يدلف بين هنا وهناك في تمجيد المحارب البجاوي، ولكن بأسلوب هزلي لم يخل من نزعة استعلائية وعنصرية في كيف أن هذا الشخص البدائي البائس استطاع اختراق المربع الانجليزي، مهمة فشل فيها الفرنسيون والروس. انقسم البريطانيون في قراءتهم للقصيدة، بين مؤيد ومعارض لها، في حين أن النخبة السودانية احتفت بها وتبارت بترجمتها، حتى أن بعضهم اقترح أن تكون نشيدا قوميا للسودان.

Fuzzy Wuzzy- A new look at the poem of the great Victorian British poet Rudyard Kipling

Dr. Osheik Adam Ali Musa

Abstract:

The poem of “Fuzzy Wuzzy” was composed by the eminent British poet and novelist Rudyard Kipling in praise and respect of the Beja warriors of the Mahdist’s army led by Osman Digna the most eminent Mahdi commanders. The title of the poem referred to the bushy hair style of Beja fighters in both comic and racist manner. The paper discusses the superiority of the British army, both in training and weapon over the Ansar army, yet Osman Digna, using a hit and run tactics was able to break through the British infantry square, a success failed to be achieved by rival French and Russian superpowers. The British soldiers and commanders were fascinated by the bravery and courage of these ill-equipped local fighters, a thing that inspired Kipling to compose his poem.

مقدمة:

عدت قصيدة فُزي وَزي لشاعر الأبراطورية البريطانية الكبير رُوديارْد كِبليْنغ من عيون الشعر الفيكتوري الذي جسد فيها الشاعر بطولات وشهامة المحارب السوداني، ولا سيما البجاوي في شرق السودان. فالقصيدة جسدت كثيرا من معاني الشجاعة والبطولة والفداء لأفراد جيش عثمان دقنة في ملاقاته المتكررة مع جيوش المستعمر البريطاني. فجاءت القصيدة كوصف لملحمة من ملاحم النضال السوداني الشرس ضد المعتدي. من خلال استعراض هذه القصيدة العصماء نريد أن نستحضر بطولات الماضي وإنجازاته لشعب البجا، لا للركون إليه ولا لاجتراره، ولكن من منطلق أن الحاضر هو امتداد للماضي، وأنه في نفس الوقت جسر عبور للمستقبل المشرق. فمن لا ماضي له لا حاضر له ولا مستقبل .

لا يخفي علي الجميع أن إنجازات الماضي في شرق السودان كانت جزءا من القوالب التي شكلت جغرافية وتاريخ السودان الحديث، بالرغم من أن الأمر لم يجد ما يستحقه من توثيق و تقدير داخل السودان، كما وجد من الأعداء. واليوم نرى أن البجا تقاعسوا عن هذا الدور ليس على مستوى السودان عامة، وإنما على مستواهم المحلي. وأن الأوان الآن أن يستردوا هذا الدور لتكتمل استحقاقات المواطنة الحقة، ولن يحدث ذلك إلا بعد توحيد الكلمة ولم الشمل آخذين في الاعتبار أن الإنجازات الهامة في مسيرة الشعوب لا تحدث من فراغ، وإنما هي نتاج طبيعي لتلاحم القيادة مع القاعدة في تفاعل عضوي لا انفصام عنه.

لذا نود أن نستعرض، وبقراءة جديدة، قصيدة فَرِي وَزِي للشاعر البريطاني الكبير روديارد كِبْلِينْغ التي نظمها في فترة هامة من تاريخ السودان، وتاريخ الشرق بصفة خاصة. البجا في تلك الفترة ضربوا أروع الأمثال للتضحية والاصطفاف الشعبي والانضباط العسكري خلف قيادة عسكرية وسياسية ذكية استطاعت أن تستثمر كل وقائع الميدان وتناقضاتها مما أهلها لتنجز نصرا غالبا، وإن لم يكن حاسما، علي جبهة هامة من جبهات حرب التحرير ضد الاستعمار البريطاني، وهي البوابة الشرقية. تمثل هذا النصر في أن قائد المسيرة آنذاك، الأمير عثمان دقنة، خاض أكثر من أربعة عشر معركة ضد المستعمرين ولم يخسر واحدة منها⁽¹⁾، علاوة على ذلك استطاع كسر المربع البريطاني، في سابقة تاريخية لم تسجل من قبل، وتسبب في إرباك وذعر للقوات البريطانية، وإحباط نفسي ومعنوي لهم. وبالرغم من أن عثمان دقنة، كما يقول محمد إبراهيم أبو سليم⁽²⁾، كان أكثر أمراء المهديّة شهرة في الخارج، وفي الداخل كان سيد أرضه، إلا أن هذه الانجازات العسكرية الجليلة لم تلق ما تستحقها من الاشادة والتوثيق من كتابنا ولا من مؤرخينا. وفي الجانب الآخر أسهب البريطانيون في وصف هذه المعارك بتفاصيل لا نجدها في أدبياتنا السياسية ولا التاريخية. محاولتنا لقراءة جديدة للقصيدة المعنية تهدف إلي الإشارة إلي أن من مستوجبات النصر العسكري والسياسي تستوجب وجود قيادة منضبطة متماسكة واعية تستطيع لمّ الشمل وتتنزل للقواعد أخذاء وعطاء لتحديد الأهداف المرجوة، ووضع آليات التنفيذ الممكنة لها. في قراءتنا لقصيدة فَرِي وَزِي علينا أن نتطرق لبعض الجوانب المرتبطة بها.

الشاعر:

شاعر قصيدة فَرِي وَزِي هو البريطاني رُودِيَارْد كِبْلِينْغ الذي ولد بالهند عام 6381 وألحق بمدارس بريطانيا. وبعد تخرجه رجع إلي الهند مرة أخرى ليعمل مراسلا حربيا لصحيفة في لاهور (الباكستان الآن). وفي الهند بدأت تظهر مقدراته الأدبية، وعُرف في تلك الفترة كواحد من أميز الأدباء والشعراء البريطانيين حيث نشرت أعماله الأدبية في كثير من الصحف والمجلات، وطبعت أخيرا في شكل كتب منفصلة. تعاطي كِبْلِينْغ الشعر وكتابة القصة القصيرة، ولا سيما قصص الأطفال، ولكن شهرته كانت أكثر في الأخيرة مما أهله لنيل جائزة نوبل للآداب عام 7091 ليكون أول بريطاني ينال هذه الجائزة الرفيعة .

من الناحية السياسية صنف كِبْلِينْغ كواحد من غلاة المحافظين (بتعبير اليوم) حيث نصّب نفسه مدافعا مستميتا للتاج البريطاني ومبررا كل ما تقوم به بريطانيا، والغرب بصورة عامة من غزو وحملات عسكرية في أرجاء العالم. وكان من الذين يؤمنون إيمانا جازما بأن لبريطانيا رسالة حضارية وأخلاقية في نشر مفاهيم المجتمعات الأوروبية. هكذا كان الاتجاه السائد في تلك الأيام وسط كثير من السياسيين والعسكريين الأوروبيين، وربما إلي يومنا هذا. لذلك لم يحفي كثير من الشعراء المعاصرين امتعاضهم من الأعمال الشعرية لكِبْلِينْغ لما تحمله من مفاهيم عنصرية وامبريالية⁽³⁾، ولكنه كان في عصره كما يقول T.S Elliot ملك الكلمة بلا منازع⁽⁴⁾.

القصيدة:

استمدت قصيدة فُزِي وَزِي إسمها من اسم الحيوانات المنزلية الأليفة ذات الشعر أو الفراء الكثيف. ربما اختار كِبِلِينْغ هذه التسمية لغرضين. الأول لتشبيه المحارب البجاوي الذي جمعتهم بهم معارك شرق السودان والذي تغطي رأسه كتلة كثيفة من الشَّعر (تفة) بتلك الحيوانات. الغرض الثاني أراد كِبِلِينْغ أن يقلل من شأن هذا المحارب وبصورة استخفافية بتشبيهه بهذه الحيوانات المنزلية الوديفة التي يتلهى بها الأطفال. ويقول في ذلك:

E' s a daisy, 'e's a ducky, 'e' a lamb!

كما أراد كِبِلِينْغ أيضا أن يعطي انطبعا بأن هذا البجاوي شخص وديع ولا يمكن أن يكون مصدر خوف أو قلق في أي معركة، ومن ثم يمكن سحقه. غير أنه كان صائبا في تشبيهه الأول ومخطئا في تقديره الثاني، كما روت لاحقا مجريات المعارك والمواجهات الشرسة في شرق السودان. إذ أن هذا الشخص الوديع، كما تصوره أو تمناه كِبِلِينْغ، أصبح أشرس ما لاقاه البريطانيون في حروبهم المختلفة. لذلك يحيي أحد البريطانيين علي لسان جده الأكبر ممن شهدوا هذه المعارك، وأصيب بطعنة حربة في فخذة الأيمن « بأن محاربي هذه المناطق يمثلون بعض القبائل القليلة التي يخشى الإنجليز اللقاء بهم لشراستهم وبسالتهم:

“They were one of the few tribes the English feared to fight due to their aggressive nature.”

ظهرت قصيدة فُزِي وَزِي أول ما ظهرت في 51 مارس 1809، مع قصيدتين أخريتين. ونشرت للمرة الأولى في الدورية الأسبوعية سكوتس اوبزيرفر Scotts Observer. كتبت القصيدة بلغة إنجليزية كلاسيكية غير المتداولة في الوقت الحاضر، وهي لغة أشبه بلغة المعلقات في الأدب الجاهلي، وتميزت بأسلوب خلط بين الجد والهزل ممزوجان بقوالب من الاستهزاء والاستخفاف وبنعرة عنصرية. ويعلق بعض النقاد أن كِبِلِينْغ، بالرغم من أنه اجبر بإشادة المحارب البجاوي، إلا أن القارئ الحصيف يمكنه تلمس مرارة الهزيمة التي منيت بها بريطانية مبطنة في كلماته. أراد أن تكون مفردات القصيدة اقرب للغة التي يتحدث بها الجنود البريطانيون، وبالذات فيما يخص اسقاط بعض الحروف من الكلمات (e's a ducky, 'e' a)، وهنا ينطبق عليها القول الشائع: الأسلوب السهل الممتنع.

استقبل الوسط البريطاني القصيدة عند أول ظهورها بشعور تفاوت بين السخط والرضي. البعض صنفها علي أنها انجاز أدبي رفيع من شاعر مقتدر ملك ناصية الشعر وقوة البيان، كما قال الشاعر Elliot سابقا. في حين أن البعض الآخر، ولا سيما العسكريون، وبعض غلاة السياسيين، نظروا إليها وكأنها عمل ، وإن كان أدبيا بحثا، إلا أنه يعبر عن وجهة نظر سياسية وعسكرية من الدرجة الأولى، وأنه غير موفق من الناحية العملية والعسكرية، لأنه يحتوي علي تمجيد الأعداء واعتراف لهم بمقدرات قتالية تنتقص من مكانة الجندي البريطاني. وكِبِلِينْغ في قصيدته هذه كان يعبر عن رأي الجنود البريطانيين الذين رأوا في المحارب البجاوي رمزا للشجاعة والإقدام

” كان الانتحاريون البجاويون الذين كانوا يخترقون صفوف الجيش البريطاني ليلا ليسددوا طعنات قاتلة لجنود الحراسة الليلية ثم يواجهون الموت ببسالة ، كانوا بمثابة اعجاب وتقدير للجندي البريطاني“⁽⁵⁾ ، وهذا أيضا كان رأي تشرشل⁽⁶⁾ فيهم: ”إنهم اشجع من سعى على قدم“.

ومهما يكن رأي البريطانيين فيها إلا أنها، أي هذه القصيدة، وقصائد أخرى من شعراء بريطانيين فحول مثل نيوبولت (Newbolt) وماقونغال (McGonagall)، تمثل لنا نحن في السودان قلادة شرف في عنق المحارب السوداني، ولا سيما البجاوي في شرق السودان، تحت قيادة قائدهم المقتدر عثمان دقنه، الذي قال عنه أندرو بول: « كان أذكي أمراء المهديّة، رغم أنه لم يحظ بالموقع الذي يليق به لأنه استطاع أن يصمد أمام جيوش أعني منه قوة وعتادا⁽⁷⁾، ووصفه دكتور عبد الله علي إبراهيم بثعلب الصحراء على غرار القائد الألماني الشهير إرفين روميل الذي دوخ جيوش الحلفاء في شمال إفريقيا في الحرب العالمية الثانية.. وللأسف هذه الانتصارات المتلاحقة لم تجد بالصورة التي تستحقها) طريقها للمناهج السودانية بالشرح والاستنتاج المطلوبين.

تتكون القصيدة من الناحية البنائية من أربعة مقاطع رئيسية stanza، وكل مقطع من إثني عشر بيتا⁽⁸⁾. يستهل الشاعر قصيدته، وكما هو متوقع، بتمجيد وتفوق الجيوش البريطانية التي حاربت في اصقاع الكرة الأرضية. يقول قد حاربنا الروس في الكريما، ونايليون فرنسا في موقعة وترلو الفاصلة، ومرورا بالبشتو في مرتفعات خيبر بآسيا الوسطي، وكذلك البورميين، وليس انتهاء بقبائل الزولو الشرسة في الجنوب الإفريقي. فقد كان منهم، كما قال، من كان شجاعا ومنهم من لم يكن شجاعا، وكلهم لم يكونوا قدر شجاعتك أيها البجاوي لأنك كنت أشجعهم وأشرسهم.

We've fought with many men acrost the seas

But the Fuzzy was the finest o' the lot

القصيدة في الوسط الثقافي السوداني أول من نوه لقصيدة قَزِي وَزِي من المثقفين السودانيين هو الشاعر صلاح أحمد إبراهيم في ستينيات القرن المنصرم، حيث ضمن المصطلح في قصيدة له بعنوان « دبايوا» في ديوانه غابة الأبنوس في عام 1960⁽⁹⁾. ومن ثم عدد كبير من المثقفين السودانيين أولوا اهتماما كبيرا بالقصيدة وقاموا بترجمتها، منهم على سبيل المثال صلاح أحمد إبراهيم، غازي صلاح الدين، المؤرخ الكبير صالح ضرار، إبراهيم أحمد شلية، عبد المنعم خليفة خوجلي، ومعاوية محمد الحسن. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أهمية هذه القصيدة من الناحية الأدبية والوطنية لدرجة أن الدكتور غازي صلاح الذي ذهب أبعد من ذلك واقترح أن تكون النشيد الوطني للبلاد لما تحملها من معاني وطنية سامية.

الاعتراف الذي سجله الشاعر كِبْلِينْغ في قصيدته المشهورة، لم يكن مئة منه ولا من غيره، وإنما كان اعترافا انتزعه المحارب السوداني عن قوة واقتدار وبتضحياته الجسورة على أرض المعارك، فضلا على أنه اعتراف لم يمنح لأحد من الجيوش التي حاربها البريطانيون في تلك الحقبة، إبتداء من نابليون فرنسا في موقعة وترلو الفاصلة، ومرورا بالبشتو في مرتفعات خيبر بآسيا الوسطي و البورميين وانتهاء بقبائل الزولو الشرسة في الجنوب الإفريقي.

إضافة لذلك القصيدة، كما قال أحد المعلقين والنقاد عنها، إنها تمثل أول اعتراف بريطاني بهزيمتهم، حتي وإن لم تكن هزيمة عسكرية صرفة، إلا أنها تمثل إقرارا بإفشال مخططاتهم العسكرية واختراقا لتحصيناتهم الدفاعية المنيعة المدججة بقوة ضاربة بشتي الأسلحة النارية الحديثة، بما في ذلك المدافع الميدانية الثقيلة التي دخلت الميدان الحربي حديثا. يصف كِبِلِينْغُ بسالة المقاتل الجاوي فيقول « ما لا قيناه من شراسة في حروبنا في خير وبورما وجنوب إفريقيا لم تكن إلا شربة واحدة (يعني بقعة واحدة بالدارجي السوداني) من مشروب المياه الغازية، مقارنة بما تجرعناه من علقم في حروبنا في شرق السودان».

But we ever got from such as the

Was pop to what the Fuzzy made us swaller;

هذا اعتراف غال من مواطن بريطاني رصد المعركة عن كثب، ولكنه لم يتعود تمجيد الآخر، ولا سيما من يصفونهم بالبدايين، ولكن الحق أبلج ولا يمكن نكرانه، حتي وإن كان من العدو، والخير ما شهدت به الأعداء. وفي هذا يقول القائد ونجت باشا في تقديمه لكتاب عثمان دقنة لجاكسون: إن معارك شرق السودان أكسبت الجاويين سمعة مستحقة كرجال شجعان، ولكنها شجاعة متهورة متعصبة. ويضيف قائلاً وخلصت تلك السمعة عثمان دقنة في ذاكرة الرأي العام البريطاني في ثمانينات القرن التاسع عشر أكثر من غيره من القادة الكبار في تلك الحقبة⁽¹⁰⁾.

كِبِلِينْغُ، الذي لم يكن عسكريا محترفا، غير أنه كان مراسلا حربيا كُلف بالتغطية الصحفية لمعارك بريطانيا في شبه القارة الهندية. لذلك يكون رأيه، حتي وإن لم يمثل القيادة العسكرية، إلا أنه رأي مطابق للواقع، ورأي من عرك المعارك رسدا ونقدا. وفي المقابل اعتراض بعض العسكريين على القصيدة جاء على خلفية الاستكبار العسكري البريطاني على أنها تحط من قدر جيش صاحبة الجلالة التي كانت جيوشها سيده المعارك في ذلك الزمان .

الخلافة التاريخية للقصيدة :

في نهاية العقد قبل الماضي، واجهت بريطانيا مشاكل جمة في السودان، حيث اندلعت الثورة المهديية هناك، وأصبحت تدك معاقل خديوي مصر في السودان. انتصارات المهدي المتتالية في السودان أصبحت تهدد بقاء الاستعمار المصري الإنجليزي في السودان. بريطانيا في تلك الأثناء، وتحث قيادة حزب الأحرار، لم تكن متحمسة في التورط أكثر مما يجب في الشأن السوداني، وكان رئيس وزرائها آنذاك قلاستون يتمني أن يترك السودان وشأنه للمصريين. غير أن غوردون الذي كُلف بإخلاء جميع الرعايا الأجانب من السودان بعد انتصارات المهديية المتتالية، تعنت ورفض مغادرة قصر الرئاسة في الخرطوم، الذي حوصر فيه، فضلا علي شعبيته المتنامية في بريطانيا (لدوره الهام في دحر الجيش الصيني). كل ذلك أجبر بريطانيا أن ترسل حملة لإنقاذه سميت بـ « حملة إنقاذ غوردون ». أوكلت قيادة هذه الحملة للورد ويسلي الذي وصل إلي مشارف الخرطوم في 82 يناير 5881، فقط بعد يومين من اغتيال غوردون باشا. أجمع المعلقون العسكريون أن من الأسباب المباشرة التي أدت إلي حصار الخرطوم ومقتل غوردون هو الحصار الذي ضربه عثمان دقنه علي

طريق الإمداد الحيوي بين سواكن وبربر، والمعارك الشرسة الدائرة بشرق السودان. مقتل غوردون خلف موجة عارمة من السخط الشعبي في بريطانيا، وانتقادا شديدا للحكومة والجيش لتقاعسهم عن نجدته في الوقت المناسب. زد علي ذلك عدم مقدرة الحكومة في تأمين موانئ البحر الأحمر. كل هذا شجع علي تورط بريطاني أكبر في الشأن السوداني. أخذًا بهذه المعطيات الميدانية، سعت بريطانيا لتعزيز قبضتها علي السودان، ولفك الحصار المضروب من قبل جيوش المهدي للطريق الرابط بين بربر وسواكن.

تتالت هزائم المصريين والإنجليز في المعارك الساحلية، بعد سقوط سنكات المخزي، والمعارك الدامية في التيب وتوفريك، واستسلام حامية طوكر. لم يبق لبريطانيا نفوذ في شرق السودان غير حامية سواكن التي تحميها سفن الأسطول الملكي البريطاني. كل هذه الهزائم المتكررة حطت من سمعة بريطانيا مما أغضب الملكة وألب الصحافة والرأي العام ضد الحكومة. استجابة لكل هذه الضغوط وافق رئيس الوزراء البريطاني قلاستون، أن يرسل قوات إضافية إلي سواكن، ولكنها واجهت مقاومة شرسة من قوات عثمان دقنه في مواقع مختلفة علي الجبهة الشرقية، وقتل فيها أعداد كبيرة من الجانبين، وبالذات الجانب السوداني. كان من أهداف معارك شرق السودان هو تأمين حركة الملاحة في البحر الأحمر، ومن ثم تأمين تجارة الامبراطورية البريطانية مع الهند والشرق الأقصى. وكانوا يعتقدون أن احتلال جيوش المهدي للساحل السوداني سوف يهدد مصالح بريطانيا. الهدف الثاني للحملة هو تأمين إي انسحاب محتمل عبر البحر الأحمر للراعي البريطاني والقوات الأجنبية في السودان، إذا دعت الضرورة لذلك.

أظهرت وقائع الميدان أن التجهيزات العسكرية بين الطرفين لم تكن متكافئة بكل المقاييس. الجيش البريطاني كان يتفوق علي جيش الأنصار تدريبا وتجهيزا وخبرة، فضلا علي امتلاكهم قوة نارية ضاربة من بنادق ومدافع ثقيلة. وفي الجانب الآخر جيش عثمان دقنه، كغيره من جيوش المهدي، لم يمتلك من العتاد الحربي غير الأسلحة التقليدية من سيوف وحراب وعصي، وقليل من البنادق التي غنموها من الأعداء، غير أنهم أبدوا كفاءة عالية في استعمالها، كما وصف أحد البريطانيين من قوات القائد استوارت واحدة من تلك المعارك: «إن المواجهة الحقيقية كانت من البجاويين المسلحين بالحراب حيث يوجهون رماحهم بدقة متناهية، وفي الوقت المناسب نحو خيلنا فيصيبون منها مقتلا، كما كانوا يستعملون عصي معقوفة من السنط (السفوق) يصيبون بها ركبة الخيل، مما يقود إلي سقوطها وشل حركتها»⁽¹¹⁾. ويضيف كبلينغ قائلاً إنكم إن لم تكونوا بنفس قدر التسليح مثلنا إلا أنك أيها البجاوي أبدت مهارة فائقة في استعمال السيف وأنكم تستحقون شهادة تقدير واعتراف منا بذلك « ويجب أن نعترف بمقدراتك العالية (أيها البجاوي) في استعمال السيف.

“So we must certify the skills ‘e’s shown
In using’ of ‘is long two-‘nded swords”

يوضح هذا أن السلاح ، وإن كان بسيطاً، إلا أنه يكون فعالاً عندما يكون في يد من يجيد استعماله. لا يمكن التقليل من أهمية السلاح في حسم المعارك، غير أن العبرة بالروح القتالية للجندي والهدف الذي يحارب من أجله.

افتتن كبلينغ بحسارة المحارب السوداني، لذلك أراد أن يذكرهم بما هو متبع في الأعراف العسكرية، وهو أمر لم يشذ عنه القواد البريطانيون، في أنهم كانوا يكافؤون جنودهم الشجعان بشهادات تقدير وأوسمة ونياشين تقديراً لاستبسالهم في المعارك. ويستعيد هنا كبلينغ نبرته الاستعلائية مرة أخرى مخاطباً جيش عثمان دفنة بأنكم لا علم لكم (بسبب بدائيتكم وهمجيتكم) بهذه الاعراف العسكرية المتوارثة، لذلك يمكننا نحن أن نهزلكم لشهادات التقدير هذه.

E'ans't got no papers of 'is own

E'ans't got no medals nor rewards

So we must certify the skill 'e's shown

المربع البريطاني:

ربما سمع الكثيرون بالمربع البريطاني ولكنهم يجهلون ما هو المقصود منه. فكرة المربع البريطاني هي تكتيك حربي بريطاني عريق يوفر الأمن والسلامة عندما يتحرك الجيش في أرض مكشوفة في مواجهة الفرسان والمشاة المسلحين بالأسلحة البيضاء (انظر أسفل لصورة المربع البريطاني). أثبت المربع جدواه في معارك كثيرة، وبالذات في حرب الكرميا مع الروس، ومع الفرنسيين في معركة وترلو الشهيرة. ولكن كفاءته القتالية أكثر جدوي في حال أن الخصم لا يمتلك قوة نارية رادعة، وأن المعارك تدور في أرض منبسطة. هذا ما كان ينطبق علي جيش عثمان دفنه في شرق السودان. كما يكون المربع أكثر فعالية عندما تكون ساحة المعركة أرضاً مستوية خالية من الخيران والوديان والتلال الصغيرة، وهذا ما لم تكن عليه ساحات المواجهة بين الجيش البريطاني وجيش عثمان دفنة في تلال البحر الأحمر.

من الناحية العملية يوزع الجيش في التشكيلة العسكرية للمربع إلي مربع متساوي الأضلاع ، كل ضلع فيه يتكون من صفين أو أكثر من الجنود، من المشاة والخيالة (الفرسان أو راكبي الخيل) . يتفاوت عدد الجنود في كل ضلع ما بين 1000-1500 جندي ملتصقين ببعضهم البعض لمنع أي اختراق محتمل. داخل المربع يتحرك العتاد العسكري من مدافع وذخيرة، كما توجد بوسطه المؤن وحيوانات النقل، من جمال وبغال وحمير، ومعها المشرفون عليها، وكذلك بقية أفراد الجيش. بهذه التشكيلة يمكن تشبيه المربع بقلعة حصينة متحركة، حيطانها من الجنود وتحمي أركانها مدافع جالينغ وجاردنر الرشاشة، ومدافع الميدان زنة 7 رطل، التي تشكل قوة نارية كافية لتمطر كل واجهة للمربع، وتمزق أي هجوم محتمل للأنصار. كسر هذا المربع يحتاج لقوة مدفعية ضاربة تقضى على واجهته. وهذا ما لم يتوفر للقوات السودانية المهاجمة. إضافة لذلك أن الجنود في كل واجهة من المربع يتميزون بمرونة في الحركة السريعة يستطيعون فيها الإستدارة السريعة عند الحاجة لتكوين صف للرماية في حال ما وقع هجوم مباغت على المربع. الجنود المصفوفون

كتفا بكتف في واجهات المربع الأربعة جعلوا اختراقه صعبا، إن لم يكن مستحيلا. إذا اريد احداث اختراق للمربع لا بد من إحداث ثغرة في احدى واجهاته. وما لعب دورا هاما في هذه الناحية هو طبيعة الأرض التي دارت فيه المعركة وهي كانت ملائ بالخيران والادوية والتعرجات الصخرية علوا وهبوطا، فضلا عن الشجيرات الشوكية مما يعيق الحركة السلسلة للمربع. الامر المهم الثاني في اختراق المربع هو عنصر المباغثة الذي مارسه جنود عثمان دقنة عند اقتراب العدو منهم. تسبب هذا في ارباك في الجنود وفتح ثغرات في واجهة المربع تسلل من خلالها جنود عثمان دقنة إلى داخل المربع. وهذا ما عني به بكسر المربع.

حصاد المعارك:

كما ذكرنا أن معارك السودانيين مع البريطانيين كانت تنتقص إلى التكافؤ والتعادل. تفوقت الجيوش البريطانية بالعتاد الحربي المتطور وبالخبرة والتجربة اللتان تراكمتا من خلال حروبهم في شتي بقاع العالم، إضافة لذلك أن قواد الجيش البريطاني الذين أرسلوا إلى السودان كانوا من النخبة وأفضل ما أنجبتهم المؤسسة العسكرية البريطانية أمثال بيرني وإستوارت وغراهام وماكينيل وبيكر وويسلي وغردون وغيرهم كثيرون الذين خاضوا حروب بريطانيا العظمي في شتي بقاع العالم . بسبب هذا الخلل في موازين القوي أصبحت المعارك الحربية مع البريطانيين في السودان مجازر أكثر من أنها مواجهات عسكرية كما قال شرشل⁽¹²⁾، وأكبر دليل علي ذلك موقعة أمدرمان (كرري) التي استمرت لفترة وجيزة وقتل وجرح فيها من الأنصار أكثر من 62 ألف سوداني مقابل 54 قتيلا و283 جريحا للبريطانيين. في هذه المعارك وغيرها من المعارك التي سبقتها والتي تلتها لم يقترب المحارب السوداني من البريطانيين أكثر من 004 متر قبل ان يردى قتيلا بسلاح ناري، ولكن بشهادة البريطانيين أنفسهم أن المقاتل السوداني أثبت كفاءة عالية عندما كان اللقاء وجها لوجه، ورجلا لرجل. لذلك يقول كِئليْنغ عن البجاوي « إنك صرعتنا عندما كان اللقاء وجها لوجه:

«But man for man the fuzzy knocked us 'oller»

إضافة أنه كان يقاتل حتي الرمق الأخير كما قال فيهم كِئليْنغ في مكان آخر من قصيدته « إنه ممتلى، أي المحارب البجاوي، بحرارة الصحراء وطعم الزنجبيل عندما يكون حيا ويكون أكثر خطورة عندما يحتضر».

E's all 'ot sand an' ginger when alive

كِئليْنغ، كغيرة من عنصر يي أوروبا، يُقحم تعابير الاستعلاء العرقي والديني مرة أخرى في وصفه للبجا، بأنهم همجيون ووثنيون ولكنه في النهاية يُجبر علي الاعتراف بأن الجندي البجاوي محارب من الدرجة الأولى وأنه رغم فقدته لكثير من رفاقه إلا أنه يكفيه فخرا أنه كسر المربع الإنجليزي "You're a bore benighted 'eathen but a first -class fightin'man For If you've lost more than us, you crumplede up the squre"!

من المعارك الهامة في تاريخ المهديّة، وفي شرق السودان بصفة خاصة، معركة تأمائي (ثمانية كيلومترات من الجنوب الشرقي لسواكن) في 31 مارس 4881، التي خلدتها كِئليْنغ بقصيدته الشهيرة « قَزِي وَزِي » والتي كُسر فيها المربع البريطاني. تقول دائرة المعارف البريطانية عن هذه المعركة

أن الجيش الإنجليزي بقيادة سير غراهام، حامل وسام فكتوريا كروس (Victoria Cross) وهو أعلى وسام يُمنح لقائد ميداني، يتكون من 4500 بريطاني بين ضابط وجندي، و22 مدفع و21 مدفع رشاش، في حين أن جيش عثمان دقنه كان قوامه 01 ألف شخص. تأكد عثمان دقنه، بحسه العسكري الثاقب، وتحليله للمعارك السابقة، بأن المواجهة المكشوفة مع البريطانيين غير ذات جدوي، لأنها تعرض جيشه لوابل من السلاح الناري، لهذا أمر جنوده أن يختبئوا بين الشجيرات، وفي خور يجري محاذاة طريق سير المربع البريطاني والانقضاض عليهم في هجمة واحدة عندما يصبحون علي مقربة أقل من مأتي ياردة. وهنا تأتي أهمية معرفة طوبوغرافية أرض المعركة وهي أيضا من العوامل المساعدة في حسم المعارك. كان الهجوم مفاجأ وضاريا لدرجة أن هذه المباغنة لم تمكن البريطانيين من تركيز أسلحتهم الرشاشة التي أخطأ كثير منها العدو. لنقرأ هنا وصف غراهام للمعركة « مجموعة ضخمة من الوطنيين جاءت كسيل متدفق وهجمت بعزيمة لا تلين علي كتيبة اليوركشيرز واللانكشيرز، مما جعل المربع ينهار ويتخبط في فوضى تامة». الكر والفر وروح المبادرة والمباغنة التي ابتدعها عثمان دقنه غيرت أسلوب المواجهة بين الجيشين بحيث أصبح الرجال يتقاتلون فرادي أو في شكل مجموعات صغيرة، ولم يكن هنالك مجال لممارسة أي تكتيكات حربية سابقة، فالقتال أصبح إلتحاميا بالأيدي وبالأسلحة النارية والبيضاء في أشرس صورة يتخيلها الشخص. بعد حوالي نصف ساعة من هذا القتال الضاري استطاع غراهام، بفضل القوة النارية الحاسمة، أن يسترد تشكيل قواته بعد أن انسحب جيش عثمان دقنه بطريقة منظمة ومشرقة (كما قال أحد المعلقين) بعد كسرهم للمربع البريطاني، مهمة فشل فيها الروس والفرنسيون أكبر قوتين عسكريتين في ذلك الزمان. محصلة المعركة مقتل أكثر من 021 ضابط وجندي بريطاني وأكثر من 003 جريح، مقابل 0004 بين قتيل وجريح من جيش عثمان دقنه. هذه المحصلة من القتلي والجرحي بين البريطانيين تعتبر أعلى خسارة للجيش البريطاني في أي معركة من معاركهم في السودان⁽¹³⁾، بما ذلك معركة أمدرمان الشهيرة (كرري) التي قتل فيها فقط 54 بريطاني وجرح فيها 283 ضابط وجندي. لذلك عندما يُدرّس اختراق العدو من المؤخرة في كلية الأركان في كامبرلي بريطانيا، يُستشهد هنا بتكتيكات عثمان دقنه كنموذج في معارك التيب وتأماي وتوفريك وخور شمبات. وكالعادة يحاول البريطانيون تبرير هزائمهم دائما. يقول تشرشل منتقدا حملة غراهام ومن خلفها الحكومة البريطانية: «لقد تمت المذبحة (أي عدد القتلى الكبير بين الجانبين، ولا سيما البريطاني)، وكما حارب غراهام بلا هدف فإنه انتصر بلا ربح»⁽¹⁴⁾. كثير من المعلقين يتفقون مع تشرشل في أن هذه الحملات لم تكن لها أهداف عسكرية، والغرض منها كان سياسيا وتأديبيا لامتناس غضب الشارع البريطاني في لندن. لذلك يقول بول «الجنود الذين حاربوا في هذه المعارك بلا هدف مقنع، وجدوا ما يعجبهم في شجاعة وإقدام أعدائهم الجاوبين، أكثر من حكوماتهم البريطانية والمصرية التي أرسلتهم ليحاربوا من أجلها»⁽¹⁵⁾.

من الأشياء التي لا يركز عليه المتابعون لتاريخ تلك الحقبة، بالرغم من توثيقها، أن المربع البريطاني كُسر مرتين، مرة في معركة تأماي الشهيرة في شرق السودان 31 مارس 4881، كما وُصف أعلاه، ومرة أخرى في أبوطليح بالقرب من الخرطوم في 61-81 يناير 5881، ضد قوات القائد استوارت. المعركة الأخيرة استمرت فقط عشرة دقائق قتل فيها 67 بريطاني بين ضابط وجندي، واستشهد 0051 شخص من قوات عثمان دقنه.

أكثر ما أحببت البريطانيين في هذه المعارك انهيار مربعهم الذي كانت مقدراته الدفاعية

تراجع وتُعدّل بعد كل معركة يخوضها الجيش البريطاني في كل أرجاء المعمورة، وفشل اختراقه الروس والفرنسيون أعظم قوتين حريتين في ذلك العصر. لذلك لم يكن متوقعا أن يُكسر هذا المربع في أي مجابهة عسكرية، ناهيك عندما تكون هذه المجابهة مع قبائل بدائية (كما يصفونها) لا يملكون من عتاد الحرب إلا أسلحتهم التقليدية البسيطة. لذلك كان مخزيا ومحزنا للبريطانيين في آن واحد أن يروا مربعهم الأسطوري ينهار ويُخترق بهذه البساطة. بهذا الخصوص علق مسؤول بريطاني قائلا « إن بريطانيا شعبا وحكومة رأت في المربع البريطاني إنجازا عسكريا خارقا، ونموذجا للتفوق العسكري، وكونه ينهار أمام هؤلاء (ال دراويش) يعتبر أمرا أشبه بالخيال:

“British army and its public saw the square as and almost legendary symbol of its supremacy. That it might be broken was unthinkable”

هذه البسالة وهذه الشجاعة من المحارب البجاوي لم تترك في نفوس البريطانيين ضباطا وجنودا غير الإشادة والتمجيد، كما رفعت الحرج عن كِبْلِينْغ ليخلصهم بقصيدته المشهورة فَرِي زِي التي ختمها بالأبيات التالية (ترجمة محمد إبراهيم شلية) :

لم يحرك الغزاة فيه غير نفرة إحتقار
لذا نزجي إليك مدحا في بلادك السودان
فأنت في الحياة معدم وجاهل
ولكن في الحروب قمة الفخار
نهديك ها هنا تحية يا أشعث الإهاب
يا من حكي وعاء التبن رأسه الدهين بالغبار
وأنت الأسود الوثاب الساغب الحشا
لأنك اقتحمت صف الإنجليز في اقتدار

الخاتمة:

تعتبر قصيدة «فري وزي» للشاعر البريطاني الكبير روديارد كِبْلِينْغ من عيون الشعر الفيكتوري والقصيدة الوحيدة عن السودان في الأدب الانجليزي. جسد الشاعر من خلال هذه القصيد قوة وعظمة جيوش الامبراطورية البريطانية العظمية التي لم تقهر بفضل قاداتها العظام ومقدراتها الهجومية والدفاعية، لعل أهمها ما سمي بمربع المشاة البريطاني، وهو تكتيك حربي يتحرك فيه الجيش في شكل مربع كامل التحصينات الدفاعية. ولكن قائد جيوش المهدي في شرق السودان الأمير عثمان دقنة، وبعقليته العسكرية الثاقبة، ألحق بهذه القوات نكسات كبيرة أهمها كسر مربعهم البريطاني، مفخرة جيوش صاحبة الجلالة في سابقة لم تقدر عليها أعتى قوتين عسكريتين في ذلك الوقت، هما الروس والفرنسيين. هذه الأحداث هي التي ألهمت كِبْلِينْغ أن ينظم قصيدته المشهورة « فري وزي» تمجيذا واعترافا بشراسة وبسالة الجندي السوداني، ولا سيما البجاوي. من خلال القصيدة يمكن تلمس مرارة الهزيمة التي منيت بها الجيوش البريطانية ولا سيما على يد محاربين بدائيين (دراويش، كما ينعنونهم) لم يمتلكوا من عتاد الحرب غير الأسلحة التقليدية. اسلوب القصيدة خلط بين الجد والهزل والاستخفاف العنصري في وصفه للمحارب البجاوي، ولكن كِبْلِينْغ، ومن خلفه ضباط وأفراد الجيش البريطاني، اجبروا للاعتراف بشجاعته واستماتته في حربه معهم.

التوصيات

- الاستعانة بواحدة من ترجمات القصيدة واختيار مقاطع منها وتلحينها لأطفال المدارس كمادة من مواد التربية الوطنية.
- تعميم هذه القصيدة للدارسين العسكريين والاكاديميين للامام بتاريخهم النضالي في فترة المهديّة.
- تشجيع كتابنا وشعرائنا لقراءة القصيدة نقدا وتحليلا للوقوف لأدائها الفني وكذلك لاستنباط الدروس والعبر منها.
- لامناشدة كلية القيادة والأركان المشتركة بأمدردمان إدراج تكتيكات عثمان دقنة الحربية، إن لم تكن مدرجة أصلا، في حربه مع الجيوش البريطانية كما هو مطبق في كلية الأركان البريطانية بكمبيري.
- تشجيع فنانينا وسينمائينا لقراءة القصيدة ومحاولة التفكير في تجسيد وقائع تلك الحقبة في أعمال مسرحية وسينمائية، كفيلم الريشات الأربعة.
- محاولة تصوير وقائع تلك الحقبة في عروض ثلاثية الأبعاد وفي شكل بنورامي كما هو متبع في المتاحف الحربية في العالم.



صورة للمربع البريطاني مأخوذة من الفيلم السينمائي «الريشات الأربعة - The four feathers»

الهوامش:

- (1) عبد المحمود نور الدائم الكرنكي، السودان أصل الحضارة، أبطال السودان.... فخر بلاحجود، 7102
- (2) محمد إبراهيم أبوسليم: مذكرات عثمان دقنه، دار الجيل، بيروت، ط2، 8991.
- (3) <http://w.w.w.poetryfoundation.org>.
- (4) T.S Elliot, Excerpts from Rudyard Kipling, on Poetry and Poets. London, 1957
- (5) أ.بول: تاريخ قبائل البجا بشرق السودان، ط2، د. أوشيك آدم علي، مطبعة التراضي، الخرطوم، 7102، ص، 98
- (6) جاكسون، هنزي، سيسل : عثمان دقنة ، ترجمة بدر الدين حامد الهاشمي، دار المصورات الخرطوم، 1202.
- (7) أ.بول: مصدر سابق ص، 58
- (8) [https:// poemanalysis.com,fuzzy wuzzy](https://poemanalysis.com,fuzzywuzzy)
- (9) عبد الله على إبراهيم: الفزي وزى البجا: بين كبلنغ وصلاح أحمد إبراهيم (1102)، [http// www.sudaress.com- sudanile](http://www.sudaress.com-sudanile)
- (10) جاكسون، هنزي سيسل ، عثمان دقنة، مصدر سابق.
- (11) أ. بول مصدر سابق، ص 78.
- (12) جاكسون، هنزي سيسل، عثمان دقنة ، مصدر سابق.
- (31) جاكسون، هنزي ، سيسل : عثمان دقنة ، مصدر سابق.
- (14) W.Churchil: River war, Skyhorse pulishing 1902
- (15) أ بول: مصدر سابق ص، 88

المصادر والمراجع:

- (1) عبد المحمود نور الدائم الكرني: السودان أصل الحضارة، أبطال السودان.... فخر بلاحجود، 7102 .
 - (2) محمد إبراهيم أبوسليم: مذكرات عثمان دقنه، دار الجيل، بيروت، ط2، 8991م
 - (3) أ. بول: تاريخ قبائل البجا بشرق السودان، ترجمة د/أوشيك آدم على، ط2، مطبعة التراضي، الخرطوم، 7102م، ص،98.
 - (4) جاكسون، هنري ، سيسل : عثمان دقنة ، ترجمة بدر الدين حامد الهاشمي، دار المصورات الخرطوم، 1202م.
 - (5) أ. بول: مصدر سابق، ص، 58
 - (6) عبد الله على إبراهيم: الفزي وزي البجا: بين كبلنغ وصلاح أحمد إبراهيم (1102)، <http://www.sudaress.com-sudanile>
 - (7) جاكسون، هنري سيسل : عثمان دقنة، مصدر سابق.
 - (8) أ. بول مصدر سابق، ص 78.
 - (9) جاكسون هنري سيسل : عثمان دقنة ، مصدر سابق.
 - (10) جاكسون هنري سيسل : عثمان دقنة ، مصدر سابق.
 - (11) أ. بول: مصدر سابق، ص، 88
- المراجع الأجنبية

- (1) 2091 gnihsilup esrohykS ,raw revIR :lihcruc.W(1)
- (2) yzzuw yzzuf,moc.sisylanameop //:sptth(2)
- (3) .gro.noitadnuofyrteop.w.w.w//:ptth(3)
- (4) oL .steoP dna yrteoP no ,gnilpiK drayduR morf stprecxE ,toille S.T(4)ndon, 1957

موقف دول الوفاق (الحلفاء) من مصطفى كمال (أتاتورك) مؤسس الجمهورية التركية (1919 - 1924م)

أستاذ مشارك - قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة شندي

د . حسن عوض الكريم علي أحمد

المستخلص:

تتناول هذه الدراسة موقف دول الوفاق « الحلفاء » من مصطفى كمال «أتاتورك» مؤسس الجمهورية التركية في الفترة (1919م - 1924م) . تأتي أهمية هذه الدراسة في أنها تتناول الخمس سنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى والتي إنتصرت فيها دول الوفاق على دول الوسط ، وفيها ظهر أتاتورك وإنتهت الدولة العثمانية وقامت بدلاً عنها الجمهورية التركية. هدفت هذه الدراسة للتعرف على مواقف دول الوفاق من أتاتورك الساعي لتأسيس دولة قومية حديثة. وكذلك تفسير وتحليل هذه المواقف ومدى تأثيرها على الدولة العثمانية وأتاتورك. إعتمدت هذه الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي . قُسمت هذه الدراسة إلى محورين وخاصة. كانت أهم نتيجة توصلت لها هذه الدراسة أن مواقف دول الوفاق المؤيدة لمصطفى كمال أتاتورك أسهمت في نجاحه في تأسيس الجمهورية التركية.

كلمات مفتاحية: دول الوفاق ، مصطفى كمال أتاتورك ، الجمهورية التركية.

The Attitude of the Entente Countries (Allies) Towards Mustafa Kamal Attatork the Founder of Turkish Republic (1919-1924- AD)

Dr. Hassan Awad Elkarim Ali Ahmed

Abstract:

The study handled the attitude of the Entente countries “Allies” toward Mustafa Kamal, Attatork founder of the Turkish Republic in the period (1919 - 1924), This study is more important because it handled. The five years after the first world war. In this war the Entente countries defeated centre countries in this years. Attatork was appired and the ottoman state was ended and replaced by the Turkish republic. The study aimed to identify these attitudes entente countries toward Attatork who want to established a modern national state and explained and analyzed this attitudes and its effective on the ottoman state and Attatork . the study adopted the analytical descriptive historical method and it is

divided in two axles and conclusion the most important findings of the study is that the attitude of the entente countries in support of Mustafa Kamal Attatork had helped him to establish the Turkish republic.

Key words: Entente Countries, Mustafa Kamal Attatork, Turkish Republic.

مقدمة :

تتناول هذه الدراسة موقف دول الوفاق « الحلفاء » من مصطفى كمال مؤسس الجمهورية التركية من ام 1919م وهو تاريخ ظهور مصطفى كمال على المسرح السياسي وحتى عام 1924م وهو تاريخ إلغاء الخلافة ، تأتي أهمية هذه الدراسة في أنها تتناول الست سنوات الأخيرة من تاريخ الدولة العثمانية والتي تلت الحرب العالمية الأولى .

تهدف هذه الدراسة للتعريف بمواقف دول الوفاق «الحلفاء» من مصطفى كمال وتحليل هذه المواقف وتوضيح أثرها على مصطفى كمال وتأسيسه للجمهورية التركية . قُسمت هذه الدراسة بجانب المقدمة والخاتمة لمحورين ، الأول : عن موقف دول الوفاق من مصطفى كمال في الفترة (1919م - 1921م) والثاني عن موقف دول الوفاق من مصطفى كمال في الفترة (1922م - 1924م) ، إتمدت الدراسة على المنهج التاريخي في جمع المعلومات الأساسية من مجموعة من المراجع العربية والإنجليزية بغرض الوصول لأهداف الدراسة ونتائجها .

لأغراض هذه الدراسة وردت مجموعة من العبارات والمفاهيم المفتاحية نحصرها فيما يلي :

دول الوفاق : وهي الدول التي شكلت إحدى قطبي الحرب العالمية الأولى (1914م - 1918م) ، وبدأ تكوينها بالإتفاق الودي بين بريطانيا وفرنسا في سنة 1904م ثم الوفاق الثلاثي في سنة 1907م والذي ضم روسيا بجانب بريطانيا وفرنسا وانضمت لهم إيطاليا مع بداية الحرب في سنة 1914م ثم الولايات المتحدة الأمريكية في سنة 1917م ، ثم أسست هذه الدول عصبة الأمم بنهاية الحرب في 1919م .

مصطفى كمال (1881م - 1938م) : وهو ضابط تركي أسس الجمهورية التركية في 1923م

ثم الغى الخلافة في 1924م .

موقف دول الوفاق من مصطفى كمال (1919م - 1921م) :

إنتهت الحرب العالمية الأولى بهزيمة الدولة العثمانية ودول الوسط ، وكان من نتيجة توقيع الدولة العثمانية على هدنة مودرس في 30 أكتوبر 1918م . أن وقعت تحت إحتلال دول الحلفاء الذين احتلت جيوشهم جميع ممتلكات الدولة العثمانية ووضعوها تحت المراقبة⁽¹⁾ كما وافق الحلفاء على ضم اليونان لأزمير في مايو 1919م تحت حماية بريطانية - فرنسية . وبدأت اليونان في ضم الجزء الشرقي للأناضول وكان رد الفعل العثماني ظهور حركة مقاومة في الأناضول لمواجهة الإحتلال وكانت هذه الحركة الصاعدة في إنتظار قائد⁽²⁾ .

كان هذا القائد هو مصطفى كمال (ولد في سانوليك 1881م ، تخرج ضابط في المدرسة الحربية في ستانبول وترقى لرتبة كابتن في 1905م وعين بفرع الفرسان في دمشق حيث كون جمعية وطن في 1906م وانضم لجماعة الإتحاد والترقي ، دافع عن جاليبولي أثناء الحرب الإيطالية . وفي حرب البلقان أرسل كملحق عسكري لصوفيا وفي الحرب العالمية الأولى عين قائداً على الفرقة الـ 19 لمواجهة الإنجليز في لانجيز ، ثم الجبهة السورية .):

عين مصطفى كمال قائداً للفرقة العشرين من الجيش التركي في أنقره في 1919م⁽³⁾ . بهدف إعادة النظام والأمن وتسوية الخلافات وفض النزاعات بين المسلمين والمسيحيين إلا أن كمال أنشأ وحدات عسكرية للمقاومة لإعادة الوطن التركي من الغزاة⁽⁴⁾ .

عندما وصل كمال إلى سامسون علم بتهيأة منطقة الأناضول لمقاومة الإحتلال اليوناني وتحرك الوطنيون نحو القائد مصطفى كمال⁽⁵⁾ وهكذا بدأ كمال ثورة ضد السلطان وحيد الدين (1918م - 1922م) والسلطنة بغرض نيل الإستقلال وقطع علاقته بالسلطان⁽⁶⁾ . بعد خروج مصطفى كمال على السلطان بات عليه السعي لكسب قوى أوروبية أجنبية تدعمه وتسانده⁽⁷⁾ وكان أقرب هذه القوى هي دول الوفاق « الحلفاء » ويتضح ذلك من مواقفها منه ويمكن تتبع ذلك في المراحل التالية :

المرحلة الأولى :

موقف دول الوفاق من تعيين مصطفى كمال وخلافه مع السلطان 1919م :

تضاربت الآراء حول أسباب تعيين السلطان لمصطفى كمال فيرى البعض إن وزارة الحربية والسلطان توقعوا له النجاح في المقاومة . وأن السلطان والصدر الأعظم فريد باشا كانا يشكان في ولاء السلطان لهما⁽⁸⁾ والحق رئيس الحكومة فريد باشا على السلطان على تعيين مصطفى كمال مفتشاً عاماً في المنطقة الشمالية وحاكماً عاماً على المناطق الشرقية ومنحه صلاحيات واسعة لتنفيذ مهمة القضاء على المنظمات الوطنية التي أقلقت المندوب السامي الإنجليزي وذلك حفاظاً على مصلحة تركيا كما جاء في مرسوم التعيين وفي الوقت الذي وصل فيه كمال إلى سامسون كانت اليونان قد احتلت ميناء أزمير بموافقة ودعم الحلفاء في مايو 1919م⁽⁹⁾ . وهناك من يرى أن بريطانيا حركت إيطاليا واليونان لاحتلال أزمير ، ودفعت بكمال للأناضول لمقاومة الإحتلال لإنشاء دولة عصرية حديثة وذلك بالإستعانة بحلفائها وبعض الأتراك⁽¹⁰⁾ ويذكر أيضاً أنه لما قامت في الأناضول مجموعات المقاومة الوطنية الأمر الذي جعل المندوب السامي ممثل الحلفاء أن يطلب من السلطان محمد السادس في مايو 1919م وضع حد لتلك المقاومة التي تشيع الفوضى⁽¹¹⁾ ، وهكذا هيا الحلفاء الفرصة لمصطفى كمال لكي يتزعم الحركة الوطنية في الأناضول عندما طلبوا من الحكومة إقرار النظام في الأناضول⁽¹²⁾ .

بدأ الخلاف بين مصطفى كمال والسلطان عندما عقد كمال مؤتمر أرضروم في يونيو 1919م وارسل البرقيات الإحتجاجية للسلطان على احتلال اليونان لأزمير وطلب السلطان من الصدر الأعظم إصدار أمر بإعادة كمال للعاصمة . إلا أن كمال رفض تنفيذ هذا الأمر وعندما أمر السلطان

كاظم قره بيكر قائد الجيش العثماني الثاني في أضراروم بالقبض عليه وإرساله للعاصمة إلا أن بيكر تضامن مع كمال (13) . وعندما دعا كمال للإستقلال إنزعجت بريطانيا من نشاطه وضغطت على الحكومة على عزله فأستقال مصطفى كمال واستمر في العمل مع رفاقه الضباط في الأناضول (14) .

بإنعقاد مؤتمر سيواس الثاني في سبتمبر 1919م والذي أصدر الميثاق الوطني وتحت الضغط البريطاني أعلن السلطان محمد السادس فتوى من شيخ الإسلام حيدري زاده أفندي (1919م - 1920م) حكمت على خروج الحركة القومية التركية عن الإسلام (15) . وفي ديسمبر 1919م نقل كمال حكومته من سيواس إلى أنقره وفي يناير 1920م أقر الميثاق الوطني المطالبة بالإستقلال والحرية لجميع الأقاليم الأهله بأغلبية تركية على أن يتقرر مصير الأملاك العربية بالإستفتاء مع إحترام حقوق الأقليات (16) . وفي مارس 1920م تدخلت القوى البريطانية في استانبول بقيادة الجنرال ويلسون قائد الحلفاء (17) حيث اعتقلت بريطانيا الساسة والنواب الوطنيين وفتهم إلى جزيرة مالطه وضغطت على السلطان حتى يصدر حكماً بالإعدام ضد مصطفى كمال ، وكانت ردة فعله هي إعتقال الضباط البريطانيين في الأناضول (18) . وعندما حاولت حكومة استانبول إرسال قوى للقضاء على الكماليين لم يسمح الحلفاء لها بذلك بحجة أنهم غير راغبين في قيام حرب أهلية في الأناضول تتسبب في مشاكل لمسيحي المنطقة (19) أي أنه عندما حاولت حكومة استانبول إرسال جيش ضد مصطفى كمال منعت بريطانيا ذلك بناء على شرط الهدنة التي سرحت الجيش وتظاهر الإنجليز بالحياد . وفشلت محاولة السلطان في القبض على مصطفى كمال مما أدى لتصاعد مكانته وتدهور سمعة السلطان ومركز الخلافة (20) . وهكذا عندما تمرد كمال على السلطان لم يعاون الحلفاء السلطان في القضاء عليه وأفشلوا القبض عليه (21) . وهكذا بدأ موقف الحلفاء منزعجاً من تعيين مصطفى كمال في الأناضول ثم دعم الحلفاء السلطان ضد كمال عند بداية الخلاف بينهما ، إلا أن الحلفاء لم يساعدوا السلطان في القضاء على مصطفى كمال مما يوضح تأرجح موقف دول الوفاق في البداية ثم وضع ميلهم نحو مصطفى كمال بعد ذلك .

المرحلة الثانية :

موقف دول الوفاق من مصطفى كمال (1920م - 1921م) :

أ/ موقف بريطانيا :

عندما كون مصطفى كمال المجلس الوطني الكبير في أبريل سنة 1920م وأصبح رئيسه (22) . وتلقى كمال رسالات مكتوبة من بعض رؤساء البلدان الأوربية يهنئونه على توليه رئاسة الجمعية الوطنية (23) .

عند إنعقاد معاهدة لندن في فبراير 1921م لمراجعة معاهدة سيفر ، اعتبر كمال حكومة أنقره هي الحكومة ذات الشرعية للتحديث بإسم الأمة التركية وأرسل وفداً (24) وسمحت بريطانيا بحضور وفدين من استانبول وانقره (25) ومن ذلك يتضح اعتراف بريطانيا بسلطة وحكومة مصطفى كمال .

ب/ موقف روسيا :

سعى مصطفى كمال إلى تنظيم جيش المقاومة بمساعدة دولة روسيا التي أمدت الوطنيين بالأسلحة والذخائر كما تحمل الوطنيون الأتراك عبء القتال في عدة جبهات فأشتركوا مع الروس في إسقاط الجمهورية الأرمنية التي قامت في القوقاز وكان الأرمن يزمعون احتلال شرقي الأناضول⁽²⁶⁾ ثم سعى الوطنيون الأتراك لخلق علاقات صداقة مع النظام السوفيتي المعادي للإمبريالية وعندما انتخب المجلس الوطني الكبير في مايو 1920م بيكر سامي أول وزير خارجية . أرسل في مهمة دبلوماسية إلى موسكو بغرض تأسيس العلاقات الخارجية .⁽²⁷⁾ ثم أعلن كاظم قره بيكر أنه على الإستعداد للمشاركة في صفوف القوات الروسية البلشفية ودعمها في معاركها الداخلية والخارجية رداً على دعمها وتزويدها له بالأسلحة والمعدات .⁽²⁸⁾ وفي أكتوبر 1920م عين المجلس الوطني علي فؤاد سفيراً لموسكو⁽²⁹⁾ وبعد معاهدة سيفر تقدم الكماليون في أرمينيا وبدأوا يسعون لحل مشاكلها مع روسيا حيث استقبل كمال الممثل الروسي في أنقره في نوفمبر 1920م مما مهد للإتفاقية الروسية - التركية لاحقاً .⁽³⁰⁾ وفي الوقت الذي وجهه فيه كمال بالتهديد اليوناني بدعم الحلفاء كان كمال قد أقام علاقات دبلوماسية مع روسيا بتوقيع معاهدة صداقة معها في مارس 1921م ، وافق فيها الروس على عدم الاعتراف بتسوية سيفر ، كما أعلنوا تجنب وإلغاء كل المعاهدات التي وقعت بين القيصر والدولة العثمانية واحتفظت روسيا بباطون وارجعت قارص وأوردهان المحتلتان منذ 1878م وانتهت المعاهدة التهديد الأرمني ومشكلة الحدود الشرقية ودعمت روسيا القوميين الأتراك بالسلاح⁽³¹⁾ وهكذا أعطت المعاهدة الروسية 1921م كمال شرعية قانونية كما أنها رجحت كفة القوميين الأتراك على الأرمن في الجبهة الشرقية وعلى اليونان في الجبهة الغربية .⁽³²⁾

ج/ موقف فرنسا :

عندما دعمت بريطانيا اليونان بدأت فرنسا تكثف إمكانية تقاربها مع القوميين الأتراك واتخذ كمال ذلك فرصة لتجنيب اليونان الدعم الفرنسي وتأمين وضعه⁽³³⁾ . وعند إنعقاد هدنة لندن فبراير 1921م لم يخف ممثل فرنسا ميله للأتراك.⁽³⁴⁾ أعلنت فرنسا مع بريطانيا وإيطاليا حالة الحياد تجاه كل من اليونان وتركيا مما أسهم في تقدم اليونان .⁽³⁵⁾ إلا أن الكماليين انتصروا على اليونان وعندما طلبت اليونان إعانة الحلفاء لم تفعل فرنسا وإيطاليا شيئاً .⁽³⁶⁾

عقدت فرنسا معاهدة مع أنقره في أكتوبر 1921م تخلت فيها عن قليقيه مقابل الحصول على إمتياز الحديد والكروم والفضة في تركيا وتحديد الحدود السورية - التركية في منطقة الأسكندرونه⁽³⁷⁾ . وهكذا حددت فرنسا مساعيها للتوصل إلى اتفاق مع مصطفى كمال فتم التوصل إلى معاهدة تخلت بموجبها فرنسا عن ادنه وما حولها على أن تأخذ سوريا في المقابل وكانت هذه هي أول معاهدة بين دولة أجنبية وحكومة أنقره⁽³⁸⁾ .وبذلك اعترفت فرنسا بحكومة أنقرة وسحبت قواتها من الأناضول⁽³⁹⁾ .

كانت فرنسا تشجع الوطنيين في السر لمتابعة حربهم ضد اليونان وبعد انتصار كمال في سقاريا كانت فرنسا اسبق الدول للإستفادة من هذا الوضع الجديد فأرسلت مندوبها فنكلان بوليون إلى أنقره لتوقيع اتفاقية سرية مع حكومة أنقره تكون بمثابة صلح منفرد من جانب فرنسا تعترف ضمناً بشرعية الحكومة المؤقتة دون الأخذ بعين الإعتبار سلطة حكومة السلطان ومعاهدة سيفر التي لم تعد قائمة واضيف لهذه الإتفاقية السرية بروتوكول ملحق بمنح تركيا بعض الأفضليات منها انسحاب تركيا من قليقيه وتعديل الحدود السورية - التركية . لمصلحة تركيا وإقامة نظام خاص في لواء الأسكندرونه ذو الأغلبية التركية . وفي مقابل ذلك يحصل الفرنسيون على إمتياز لإستثمار مناجم الحديد والكروم والفضة ، كان ذلك في أكتوبر 1921م⁽⁴⁰⁾ .

د/ موقف إيطاليا :

وافقت إيطاليا على بيع الأسلحة سراً للوطنيين الأتراك ثم دُعيت السلطة المؤقتة في أنقره بواسطة إيطاليا لمناقشة مسألة الشرق وكانت هذه الدعوة بمثابة اعتراف ضمني من الحلفاء في الأناضول ، حيث لم يعد السلطان وحكومته يمثلان وحدهما تركيا⁽⁴¹⁾ .

كثفت إيطاليا تقاربها مع القوميين الأتراك عندما دعمت بريطانيا اليونان وبالمقابل استفاد مصطفى كمال من ذلك حتى يجنب اليونان الدعم الإيطالي⁽⁴²⁾ . وفي مارس 1921م وقعت إيطاليا اتفاق وافقت فيه على سحب قواتها من جنوب شرق آسيا نظير بعض الإمتيازات الأجنبية⁽⁴³⁾ . وفي مايو 1921م أعلنت إيطاليا الحياد تجاه كل من تركيا واليونان ولذلك لم تقدم إيطاليا إعانة لليونان عندما طلبت ذلك⁽⁴⁴⁾ . وفي أكتوبر 1921م إعترفت إيطاليا بحكومة أنقره ، وكان من أثر الإتفاقية الفرنسية مع الوطنيين الأتراك أن أقدمت الجيوش الإيطالية على الجلاء من المناطق التي كانت تحتلها في جنوبي الأناضول « انطاليا »⁽⁴⁵⁾ .

نخلص إلى القول بأن اعتراف دول الوفاق بمصطفى كمال بدأ في العام 1920م حيث قبلت بريطانيا حضور وفده لمعاهدة لندن ، كما بدأ التعاون ما بين روسيا ومصطفى كمال في نفس العام ، وتبلور هذا الإعتراف لواقع عملي في العام 1921م حيث وقعت كل من روسيا وفرنسا وإيطاليا اتفاقيات مع مصطفى كمال . وهكذا استفاد مصطفى كمال من مواقف دول الوفاق المؤيدة له حتى عام 1921م مما أسهم في نجاحه عسكرياً في كسب حرب اليونان وسياسياً في الحصول على شرعية لحكومته .

المحور الثاني :

موقف دول الوفاق « الحلفاء » من مصطفى كمال (1922م - 1924م) :

يمكن تتبع موقف الحلفاء من مصطفى كمال من خلال النظر في الهدن والمعاهدات التي وقعت مع الدولة العثمانية في الفترة 1922م - 1923م وهي :-

1/ هدنة باريس مارس 1922م :

على الرغم من انتصار الكماليين في حرب التحرير ضد اليونان قدم وزراء خارجية فرنسا وإيطاليا وبريطانيا في مارس 1922م هدنة لحكومات اليونان وأنقره واستانبول في باريس⁽⁴⁶⁾ . تضمنت

وضع السلاح . وافقت اليونان عليها . ولكن تركيا أصرت على سيطرتها على آسيا الصغرى وأعلن كمال موافقته بشرط إنسحاب كل القوات الأجنبية من تركيا⁽⁴⁷⁾ . ومن تقديم الدعوة لحكومتي أنقره واستانبول يتضح الإعتراف الضمني بمصطفى كمال وحكومته .

2/ هدنة مودانية MUDANYA أكتوبر 1922م :

بعد إخلاء اليونان لأزمير ومحاولة تقوية جيشهم في تراقيا تقدم مصطفى كمال لتحريرها محاولاً عبور الدردنيل . إلا أن الجيش الإنجليزي إعترضه ، وكاد الإصطدام يقع بين الطرفين لولا تدخل فرنسا وتعهدتها بواسطة مندوبها فرنكلان بوبون لمصطفى كمال بأن تخلي اليونان تراقيا لتركيا وذلك بموافقة الحلفاء ، ولهذا الغاية جرت المفاوضات بين مندوبي إنجلترا وإيطاليا وفرنسا وتركيا في مودانية في أكتوبر 1922م حيث وقعت الهدنة والتي بمقتضاها إعترفت حكومات الحلفاء بإعادة السيادة التركية في استانبول والمضيقين وتراقيا الشرقية . على أن يؤجل ذلك إلى مابعد لتوقيع معاهدة الصلح وأن تقوم معاهدة جديدة محل معاهدة سيفر⁽⁴⁸⁾ .

وهكذا وافقت الحكومة البريطانية على مفاوضات للهدنة مع أنقره في سبتمبر 1922م⁽⁴⁹⁾ وذلك لعلم الساسة البريطانيين بأن فرنسا وإيطاليا تدعمان سراً الوطنيين الأتراك بينما كان مندوب بريطانيا لويد جورج يشجع التقدم العسكري اليوناني ولكن بهزيمة الجيش اليوناني في سبتمبر وتقدم الوطنيين الأتراك أجبرت بريطانيا لتحديد مطالبها في تركيا⁽⁵⁰⁾ .

باستمرار الانتصارات العسكرية وقعت هدنة عسكرية في مودانية بالتفاوض بين مصطفى كمال وممثلي بريطانيا واليونان وأكد المطلب التركي أن تكون الحكومة التركية شرعية وإعادة النظر في معاهدة سيفر ورغم وجود الحكومة المعروفة إلا أن معظم الحلفاء يوافقون على سلطة كمال⁽⁵¹⁾ . وهكذا حققت حرب الإستقلال التركية هدفها في إخلاء الأناضول « شرق تريسيسي » من الأجانب⁽⁵²⁾ حيث بدأ التفكير في مفاوضات مودانية في أكتوبر 1922م بين لويد جورج والقوميين الأتراك بخصوص مستقبل تريس الشرقية ، وإيجاد معاهدة جديدة بديلة لمعاهدة سيفر واقترحت إيطاليا بأن تكون في لوزان⁽⁵³⁾ وبهدنة مودانية اعترفت دول الوفاق بإعادة السيادة التركية في استانبول والمضيقين وتراقيا وإعادة النظر في معاهدة سيفر وهي نفس الأهداف التي سعى كمال لتحقيقها.

معاهدة لوزان :

دعا الحلفاء حكومة أنقره المنتصرة وحكومة استانبول بقيادة السلطان والصدر الأعظم توفيق باشا لمعاهدة لوزان في أكتوبر 1922م حلاً للمشكلة⁽⁵⁴⁾ . وبعقد كمال للمعاهدات الدولية هدنتي « باريس ومودانية » اتجه رأي الحلفاء لعقد معاهدة لوزان بسويسرا بدلاً عن معاهدة سيفر⁽⁵⁵⁾ . وهكذا رأى الحلفاء توجيه الدعوة إلى حكومتي استانبول وانقره لحضور مؤتمر الصلح في لوزان بسويسرا وإرسال مندوبين عنهما لهذه الغاية وكان وجود مندوبين قد يؤدي لإستخدام الحلفاء لطرق ملتوية للضغط على الوطنيين وحرمانهم من ثمار إنتصاراتهم إلا أن كمال استبق ذلك وأقر في المجلس الوطني الكبير في نوفمبر 1922م فصل السلطنة عن الخلافة . وبذلك إلغاء السلطنة

وطرد السلطان محمد السادس. وبقرار إلغاء السلطنة إنهارت حكومة السلطان في إستانبول وغادر السلطان محمد السادس البلاد على طراد إنجليزي في البحر المتوسط⁽⁵⁶⁾. وبإلغاء السلطنة ومغادرة السلطان وحيد الدين في نوفمبر 1922م فقدت حكومة استانبول شرعيتها وكانت مغادرة السلطان محمد السادس قد تمت بواسطة بريطانيا حيث أعد الجنرال هارنجتون سفينة لنقله إلى مالطة⁽⁵⁷⁾.

مفاوضات معاهدة لوزان نوفمبر 1922م :

بدأت مشاورات لوزان في 21 نوفمبر 1922م وشارك وفد حكومة إستانبول برئاسة توفيق باشا⁽⁵⁸⁾. ومثلت فيها حكومة أنقرة بعصمت إينونيو يرافقه وزير الصحة رضا نور⁽⁵⁹⁾ وبذلك انتهى الوجود الشرعي لبيت آل عثمان وأصبح الطريق ممهداً لبناء النظام الجمهوري. إستغل الحلفاء وجود حكومتين في الدولة العثمانية كأخر ورقة لتحقيق أهدافهم ، بعد الفشل في تطبيق معاهدة سيفر ووجه الحلفاء الدعوى للحكومتين لحضور لوزان لتتخذ أحدهما ضد الأخرى . وكان اللورد كريزون Georg . N .Curzon وزير خارجية بريطانيا قد وضع أربعة شروط للإعتراف بالدولة التركية الحديثة هي :

- 1.إلغاء الخلافة
2. طرد الخليفة
3. مصادرة أموال وممتلكات الخليفة
4. إعلان علمانية الدولة⁽⁶⁰⁾.

إفتتاح مؤتمر لوزان نوفمبر 1022م :

أفتتح مؤتمر لوزان في 22 نوفمبر 1922م ، راجعت لوزان معاهدة سيفر وفق التطورات التي حدثت حينها . فرجوع أزمير لتركيا أصبح أمراً واقعاً وليس هناك إمكانية لنشوء أرمينية المستقلة⁽⁶¹⁾ . وهكذا بدأ العمل في لوزان لإلغاء الخلافة وفي 24 نوفمبر عزل السلطان محمد السادس بفتوى من وزير الشؤون الدينية . وعين المجلس الوطني بدله عبد المجيد بن عبد العزيز خليفة كما أكد عصمت باشا لبريطانيا وفرنسا وإيطاليا في لوزان أن حكومة أنقرة تريد إنشاء ولايات قومية متجانسة حرة من التدخل الأجنبي وغير ضعيفة في مواجهة الأخطار الأجنبية⁽⁶²⁾ . صرح رضا نور مندوب حكومة أنقرة إلى لوزان بلا دينية حكومة ، والمستغرب أن الكمالين عزلوا السلطان وحيد الدين وبايعوا عبد المجيد خليفة مجرد من السلطة وكان غرض ذلك إلغاء السلطنة أولاً ثم الخلافة ونقل السلطات إلى مصطفى كمال⁽⁶³⁾ . وهكذا نجح المجلس الوطني في أن تنفرد حكومة أنقرة في التفاوض منفردة فيما بعد⁽⁶⁴⁾ .

إستئناف مؤتمر لوزان 1923م :

توقفت مفاوضات مؤتمر لوزان بسبب أزمة أزمير وأستمرت المفاوضات بعد توقف ستة أشهر لتغيير بنودها لتستمر لثمانية أشهر أخرى⁽⁶⁵⁾ . وبعد توقيع المعاهدة التركية - اليونانية في يناير 1923م بغرض تبادل السكان بين البلدين حلاً لمشكلة الأقليات القومية⁽⁶⁶⁾ . أستوقفت المفاوضات في أبريل 1923م وفي هذه المرة عملت لوزان على تحديد تركيا على أن تتخلى عن الأملاك الأفريقية والآسيوية والأوربية وأن تنحصر في الأناضول⁽⁶⁷⁾ . إستمرت

المفاوضات بين أنقره والحلفاء إلى أن قبل الحلفاء في يوليو 1923م بتعديل معاهدة سيفر وتعديل الحكم العثماني بسلطة قومية⁽⁶⁸⁾.

تضمنت معاهدة لوزان 18 قسم وملحق وبيان وعدد موادها 143 مادة⁽⁶⁹⁾. وقع الحلفاء لوزان في يوليو 1923م ما عدا روسيا وبموجب لوزان تحققت الأماني التركية وكان مما نصت عليه :
1. إعادة السيادة التركية على كامل الجزء من الأمبراطورية العثمانية الآهلة بالأغلبية السكانية التركية مع الإحتفاظ بمناطق تراقيا مع ادرنه والأناضول وقلقييه والمناطق الشرقية .

2. إلغاء جميع الإمتيازات والمحاكم ولجان المراقبة والإدارة الأجنبية .

3. استثناء لواء الموصل بإعتباره تابعاً للعراق .

4. تدويل المضيقان ونزع السلاح منها على أن تؤمن من جمعية الأمم المتحدة الأمن العسكري في إستانبول⁽⁷⁰⁾ .

وفي أغسطس 1923م وقع كمال اتفاقية لوزان مع الدول الأوربية لتحل مكان اتفاقية سيفر وسعى كمال لوضع أسس لدولة جديدة ولم يكن يريد إستعادة الدولة العثمانية القديمة⁽⁷¹⁾ .

إعلان الجمهورية التركية :

صدق المجلس الوطني على مقررات لوزان بالإجماع في أغسطس 1923م ، وانسحبت قوات الإحتلال الحليفة⁽⁷²⁾ من استانبول لتدخلها القوات التركية الوطنية في أكتوبر 1923م وبعد عشرة أسابيع من لوزان إنتهى إحتلال الحلفاء للعاصمة العثمانية في أكتوبر 1923م وفي نفس الوقت أعلن المجلس الوطني دستوراً جعل الولايات التركية جمهورية وأنتخب كمال أول رئيس لها⁽⁷³⁾ . وهكذا قبل كمال شروط معاهدة لوزان فأرسل وزير خارجيته عصمت باشا للتوقيع عليها وفيها اعترفت بريطانيا بإستقلال تركيا . وانسحبت من استانبول والمضائق . ولما احتج أحد النواب الإنجليز على استقلال تركيا في مجلس العموم أجابه كرزون بقوله « إن القضية هي أن تركيا قد قضى عليها ولن تقوم لها قائمة لأننا قضينا على القوة المعنوية فيها وهي الخلافة »⁽⁷⁴⁾ . وهكذا نجح ممثلوا تركيا في لوزان في الدفاع عن المقاطعات الأناضولية ولم يهتموا بالأملاك العربية التي انتزعت بواسطة سيفر ، كما أنهم نجحوا في إبطال الأمتيازات الأجنبية وعدم دفع تعويضات الحرب⁽⁷⁵⁾ . وأعطى توقيع معاهدة لوزان تركيا الفرصة لتأسيس وإكمال شخصيتها⁽⁷⁶⁾ . كما أعطت معاهدة لوزان شهادة تقنين لما كسبه الأتراك في انتصارهم في حرب الأستقلال ، كما أن لوزان أعطت كمال سلطات لإكمال مهمته في إنشاء دولة جديدة⁽⁷⁷⁾ . وهكذا أكدت دول الوفاق إعترافها بمصطفى كمال وحكومته في أنقره عندما قدمت له الدعوة . بجانب حكومة السلطان لحضور مؤتمر لوزان 1922م بل واستمر التفاوض مع وفد مصطفى كمال منفرداً بعد هروب السلطان وإلغاء السلطنة وأقر مؤتمر لوزان في 1923م الإعتراف بتركيا المحصورة في الأناضول دولة مستقلة مما أسهم في نجاح مصطفى كمال في إعلان الجمهورية التركية .

إلغاء الخلافة 1924م :

كانت الخطوة الأخيرة بالنسبة لكمال هي إلغاء الخلافة بقرار من المجلس الوطني في مارس 1924م⁽⁷⁸⁾ وشمل القرار عزل الخليفة عبد المجيد بن عبد العزيز ونفيه إلى أوربا⁽⁷⁹⁾. وهكذا رغم ما حققه مصطفى كمال من انتصارات ساحقة لم يدفع بالمزيد من المطالب والشروط في معاهدة الصلح وأكتفى بخروج جميع القوات الأجنبية ، مما يوضح أن مصطفى كمال كان يقاتل وفق برنامج محدد سلفاً ، يقضي بتفكيك الخلافة الإسلامية نظير مؤازرته ودعمه في تنصيبه زعيماً لتركيا⁽⁸⁰⁾ الحقيقة أن مصطفى كمال ما كان لينجح في ثورته لولا الدعم الأوربي له . رغم تبرير موقفه لشعبه بأنه ضد الإنجليز . والواضح أن هناك تواصل بين مصطفى كمال والزعماء الغربيين وأنه صديقاً وحليفاً للغرب العلماني⁽⁸¹⁾ ، كما عمل مصطفى كمال على تحييد الأوربيين واستمالتهم وذلك بإستعداده في التخلي عن البلاد التي تدخل في خريطة تركيا وبذلك الإشارة للتخلي عن الخلافة وبالطبع كان الغرب يحتاج لهذه الدعوة .

الخاتمة:

وضح من خلال هذه الدراسة ما يلي :

تباينت وتأرجحت مواقف دول الوفاق من مصطفى كمال عندما خرج على السلطان العثماني وحيد الدين إلا أنهم أوضحوا ميلهم بعد ذلك . حيث بدأ اعتراف دول الوفاق بـ مصطفى كمال منذ عام 1920م عندما دعت بريطانيا لحضور معاهدة لندن . وتبلور اعتراف دول الوفاق لواقع عملي في عام 1921م عندما وقعت كل من روسيا وفرنسا وإيطاليا اتفاقيات مع مصطفى كمال . واستفاد مصطفى كمال من مواقف دول الوفاق المؤيدة له مما أسهم في نجاحه عسكرياً في كسب حرب اليونان وسياسياً في كسب صراعه مع السلطان واكتساب شرعية حكم الدولة العثمانية. أكدت دول الوفاق الاعتراف بـ مصطفى كمال بتقديم الدعوة لحكومته مع حكومة السلطان في عام 1922م لحضور هدنة باريس في مارس وهدنة مودانية في أكتوبر ومؤتمر لوزان في نوفمبر ، حيث إستمر التفاوض مع وفد مصطفى كمال في لوزان منفرداً بعد هروب السلطان وحيد الدين وإلغاء السلطنة مما يعني سحب البساط من آل عثمان والإعتراف بشرعية مصطفى كمال . أقر مؤتمر لوزان في 1923م الاعتراف بتركيا المحصورة في الأناضول دولة مستقلة وإنهاء إحتلالها . وكانت أهم النتائج المترتبة عن مواقف دول الوفاق المؤيدة لمصطفى كمال هي نجاحه في إعلان الجمهورية التركية وإلغاء الخلافة في 1924م .

التي توصلت لها هذه الدراسة هو أن مواقف دول الوفاق المؤيدة لأتاتورك أدت لترجيح كفته في صراعه مع السلطان محمد الساس ومهدت له الطريق في مؤتمر الوزراء 1922م لينجح في إعلان الجمهورية التركية في 1923م وإلغاء الخلافة العثمانية في 1924م. وفي الختام نوصي بفتح المزيد من الدراسات حول الظروف التي جعلت مصطفى كمال أتاتورك يعمل على بناء دولة قومية جديدة غير مرتبطة بتاريخ آل عثمان.

الهوامش:

- (1) وديع أبو زيدون ، تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن عمان ، ط 1 ، 3002م ، ص 633 .
- (2) Bernard Lweis , the Emergency of M0dem Turkey Oxford . up London 1961 . P 226
- (3) Stanford .J .show , the history of the Ottoman Empire and modem Turkey ,⁽³⁾ 3 VOL 11 second put . Cambridgeu . London 1978 p 340
- (4) عبدالعزيز محمد الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج 3 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 7991م ، ص 4661 .
- (5) William Yale , the Near East A modern history , university of Michigan .Press . U .S .A . 1958 P 277
- (6) أحمد صدقي شقيرات ، تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني 5241م - 2291م ، المجلد الثاني ، ط 1 ، دار الكنزي للنشر والتوزيع ، اربد ، عمان ، 2002م ، ص 664 .
- (7) هشام خضر ، اتاتورك ودوره في القضاء على الخلافة العثمانية ، مكتبة ، ط 1 ، 9002 ، ص 491 .
- (8) عبد العزيز محمد الشناوي ، ، مرجع سابق ، ص 4661 .
- (9) وديع أبو زيدون ، مرجع سابق ، ص ، 733 .
- (10) موفق بن المرجه ، صحوه الرجل المريض « السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية ، ط 1 ، مؤسسة الريان للطباعة والنشر ، لبنان ، بيروت ، 4891م ، ص 182 .
- (11) وديع أبو زيدون ، مرجع سابق ، ص 733 .
- (12) كارل بروكلمان ، الشعوب الإسلامية ، ط 4 ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 5691م ، ص 886 .
- (13) وديع أبو زيدون ، مرجع سابق ، ص 833 .
- (14) Barbara Jelavich , History of the Balkan twentieth century v : L 11 , Cambridge . u .P . London 1987 .P . 129
- (15) William Yale , Opcit . p . 282
- (16) وديع أبو زيدون ، مرجع سابق ، ص 933 .
- (17) Bernard lweis , Opcit p . 245
- (18) ميمونة حمزة المنصور ، تاريخ الدولة العثمانية ، دار الحامد للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط 1 ، 8002م ، ص ، 751 .
- (19) M . S Anderson , the Eas tem question 1774 – 1923, study in International Relation . Now York 1966 . P : 364 – 365

- (20) علي حسون ، الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط 3 ، 3891م، ص 062 - 162 .
- (21) موفق بني المرجه ، مرجع سابق ، ، ص 182 .
- (22) Barbara JELAVICH , OPCIT. P : 130
- (23) هشام خضر ، مرجع سابق ، ص 902 .
- (24) William Yale , Opcit . P : 284
- (25) Edwards.S. Forter , A history of Modem Greek 1821 – 1945 Second Edition London P : 139
- (26) وديع أبو زيدون ، مرجع سابق ، ص 343 .
- (27) Marrian Kent ,the Great Bowers and the End of the ottoman Empire , London , 1984 - P:19
- (28) هشام خضر ، مرجع سابق ، ص 712 .
- (29) Stamford . j .Shaw . OPCIT , P : 358
- (30) M . S .Anderson , OPCIT . P : 389
- (31) Barbara , JELAVICH , Opcit P : 131
- (32) Stanford . J . Shaw, Opcit . P : 358
- (33) William Yale , Opcit , P : 299
- (34) Edwards , S . Porter , Opcit, P : 139
- (35) Alan Palmer , the Decline and Fall of the ottoman Empire . London . 1995 – P : 155
- (36) Edwards , S . Porter ,Opcit . P : 140
- (37) Stanford , J . Shaw .Opcit , P : 360
- (38) ميمونة حمزة المنصوره ، مرجع سابق ، ص 851 .
- (39) Barbara Jelavich , Opcit . P : 131
- (40) وديع أبو زيدون ، مرجع سابق ، ص 442 - 542 .
- (41) وديع أبو زيدون ، مرجع سابق ، ص 342 .
- (42) William Yale , OPCIT . P : 299
- (43) محمّد كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة، 6791م ، ص 224 .
- (44) EDWARDS , S. FORTORS , OPCIT . P : 139
- (45) وديع أبو زيدون ، مرجع سابق ، ص 543 .
- (46) Stanford , J , Shaw , Opcit . P : 361

- (47) Edwars , S , Forter , Opcit . P : 145
- (48) وديع أبو زيدون ، مرجع سابق ، ص 643 .
- (49) Wlliam Yale , Opcit . P : 282
- (50) Marrian Kent , Opcit . P : 192
- (51) BarbaraJelavich , Opcit . P : 132
- (52) Stanford , J , Shaw .Opcit . P : 363
- (53) Alan Palmer , Opcit . P : 258
- (54) Stanford , J , Shaw Opcit . P : 364
- (55) عبد العزيز محمد الشناوي ، مرجع سابق ، ص 8761 .
- (56) وديع أبو زيدون ، مرجع سابق ، ص 643 - 743 .
- (57) Alan Palmar , Opcit . P : 259
- (58) علي حسون ، مرجع سابق ، ص 072 - 962 .
- (59) Stanford , J . Shaw .Opcit . P : 365
- (60) أحمد صدقي شنقيرات ، مرجع سابق ، ص 584 .
- (61) M . S .Anderson ,Opcit . P :
- (62) Alan Palmer , Opcit . P :
- (63) مصطفى حلمي ، الأسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية، ص 221 - 321 .
- (64) William Yale , Opcit . P : 289
- (65) Ibid , P : 289
- (66) علي محمد محمد الصلاي ، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، ط ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، د. ت ، ص 324 .
- (67) William Yale , Opcit . P: 280 - 289
- (68) Alan Palmer , Opcit , P: 263
- (69) عبد العزيز محمد الشناوي ، مرجع سابق ، ص 242 - 272 .
- (70) وديع أبو زيدون ، مرجع سابق ، ص 743 - 843 .
- (71) ميمونة حمزة المنصور ، مرجع سابق ، ص 951 .
- (72) وديع أبو زيدون ، مرجع سابق ، ص 843 .
- (73) Alan Palmer , Opcit , P: 264 - 265
- (74) علي حسون ، مرجع سابق ، ص 372 .
- (75) M . S .Anderson ,Opcit . P : 373

(76) BernandLweis , Opcit . P : 250

(77) Stanford , J , Shaw . Opcit . P : 268

(78) Stanford , J , Shaw . Opcit . P : 269

(79) علي محمد محمد الصلاي ، مرجع سابق ، ص 324 .

(80) هشام خضر ، مرجع سابق ، ص 422 .

(81) نفس المرجع ، ص 212 - 512 .